3 me Année, No. 88.

Lundi-11-3-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

أحمد حسن الزيات

الإدارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

العـــدد ٨٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ ذى الحجة سنة ١٣٥٣هـ — ١١ مارس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

إلى أين يُساق الأتراك ؟

مَنِ السائرون فى شحوب الأصيل على حدود المغرب، يسرعون الخطى كأنهم هاربون من النهار، ولا يلتفتون إلى الخلف كأنهم ناجون من سَدُوم ؟! مَنِ السائرون بين النور والظلام علَى الدرب الخادع المبهم، يخفقون كأطياف المساء على حواشى الطَّفَل، ويطمسون الطريق من الوراء حتى لا يرجعوا إلى الأهل ؟! إنها أمة من صميم الشرق نشأت فى نوره، وطبعت على شعوره، وتنفست فى عطوره، ألقت زمامها الأقدار الغالبة فى يد عصبة من أبنائها، رُبُّوا فى غير أحضانها، فنشأوا على غير منشئها، وجروا على خلاف مبدئها، فقطعوها بالكره عن مشرق الشمس ومبعث الروح ومنبت العاطفة ومنشأ الدين، وخرجوا بها متعسفين إلى طريق مشتبهة، وغاية مريبة، ودنيا مجهولة؛ ثم قالوا لأنفسها انسلخى عن شرقيتك بأمر القانون، ولقلوبها اعتقدى غير عقيدتك بحكم القوة، ولألسنتها انطقى غير لهجتك بإرادة الحاكم، ولحاضرها انقطع عن الماضى بسطوة الجمهورية، ولأرضها وبيئتها وطبيعتها انفصلن عن آسيا باذن الحكومة ! كأنما الأمم

تصاغ بالقوانين ، والطبائع تغير بـ(الأوامر !!)

* * *

مهلاً ساقةَ الظعن وهُداة القافلة !! سترحلون عن وطن إلى غربة ، وعن ولاء إلى عداوة ، وعن إخوة إلى سادة . ماذا نقمتم من الشرق مهد الانسان ومهبط الأديان ومنبع الإلهام ومسرح الأحلام ومبدأ النشأة ؟ ألم يخلق اليابان اليوم كما خلق الصين والهند وبابل والفرس والعبران والعرب بالأمس ؟

إن شمس المدنية أرسلت علينا أول أشعتها فى صبح الوجود ، ثم مَتَعَ ضحاها فغمرتنا بالنور والشعور والقوة ، ثم انحدرت إلى المغيب فى بلاد المغرب حتى بلغت خيوطها أطراف الشفق ! انها ستغرب لا محالة ، وانها ستشرق لا محالة ، وإن غروبها لا يكون إلا هناك ، وإن شروقها لا يكون إلا هنا . فلِمَ لا تنتظرون معنا يا بنى العم طلوعها الجديد القريب على موطنها الأول ؟

لقد ذرَّ منها كما ترون على اليابان أشعة ، وبصَّ منها الساعةَ على مهاد العروبة وبلاد الاسلام شعاع ! وعما قليل يسطع فى أقصى الشرق وفى أدناه وهجُها وسناها ، فتهتز الأرض من جديد وتربو ، ثم تنشقق عن العبقريات التى ارتجلت الحكمة ، واكتشفت المعرفة ، وسنت الأخلاق ، ودفعت مدنية الانسان إلى مداها البعيد

* * *

قالوا لتركىّ الأناضول : مالك وللشرق ، ومالك وللعرب ، ومالك وللاسلام ؟ تعال نبحث عن أجدادك فى الأولمب ، وعن قومك فى الفورَم ، وعن مدنيتك فى اللوفر ؛ ثم ألزموه أن يلبس القبعة ، وأرغموه أن يكتب من الشمال ، وفصلوا الدين عن الحكومة ، وانتزعوا العربية من التركية ، وحرَّموا الشعب المتدين تقاليد الاسلام ، وحرَّموا عليه أخلاق الشرق ، ثم ألغوا العيدين ، واستبدلوا بعيد الجمعة عيد الأحد ، ثم نقلوا الأمة المروعة المشدوهة على المدرَّجات إلى الشاطئ الأوربى ، ثم أحرقوا من ورائها سفائن طارق !

على أن التركى الأصيل الذى استضاء بهدى الاسلام ، وتثقف بعلم العرب ، وساهم فى مجد الفتوح ، لم يَصْغَ قلبه لهذا التغير المفروض ، فظل فؤاده حيث طبَعه محمد الرسول ، وجسمُه حيث وضعه محمد الفاتح !

أما موضع الخطر فأولئك النشء الذين قست عليهم الحرب ، وبغت عليهم السلم ، فحصروا علل أخطائهم وأسباب أرزائهم فى معنى الخلافة فنفوها من الأرض ، ثم أفرط عليهم العداء فتحيفوا ما يلابسها من شرقيــة وعروبة ودين ؛ أولئك سيزهقون فى حاضرهم روح المــاضى ، ويقطعون عن ضمائرهم صوت التاريخ ، ويبنون قوميتهم على أسس مستعارة ، ويجددون شخصيتهم على تقليد طائش ، ويخضعون عقليتهم لعبودية قاتلة ، ثم يتنفَّخون بالصوت الرفيع المدل : ان تركية للترك ! فيقول لهم الدهر الساخر : نعم ، وإن الترك لأوربا !

* * *

فخامةَ الغازى المظيم أتاتُورك* ! لقد جبرت الجناح المهيض ، وأحييت « الرجل المريض » ، وأنقذت من براثن العوادى السود تركية الفتاة ، ما فى ذلك شك . فاسمك العزيز عنوان تاريخها الحديث ، وعزمك الجبار قوام دستورها القائم ، وروحك الوثاب سناد مستقبلها الطارف ، ولكنك ظلمت تاريخك الخاص بمخالفة الطبيعة فى التجديد ، ومجانبــة المنطق فى الاصلاح . أخشى أن يسجل الرقيب الذى لا يغفــل أنك أحييت دولة وأمَتَّ أمة ، وبنيت دستوراً وهدمت عقيدة ، وبعثت لغة ودفنت ثقافة !

ماجريرة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأمنوهم على الرسالة ؟ وما جريمة الاسلام على الترك وقد نعشهم من الخمول وأخرجهم من الجهالة ؟ وماذا يبقى من الترك ولغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل ذلك ؟

إن العرب ليسوا أقل شأناً من الطليان والجرمان ، والاسلام ليس بأضعف فى رفع الشعوب من وثنية اليابان ، ولكنها موجة من المــادية الطاغية غَشَّت على الأبصار وطغت على البصائر ، ستنحسر غمرتها عن مجالى الفضيلة والحق ولو بعد حين !

احمد حسن الزيات

* أتاتورك لقب جديد للغازى مصطفى كمال معناه : « التركى الأب » أى أبو الترك

الشيطان ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدقّاق: كان شيخى أبو عبد الله محمد « الأزهرىّ العجمىُّ » — رضى الله عنه — رجلاً صاحبَ آياتٍ وخوارق مما فوقَ العقل، كأنما هو سرٌّ من الأسرار الجارية فى هذا الكون، قد بلغ بنفسه رتبةَ النجم فى أُفُقِه البعيد؛ ففيه أهواءُ الانسان وشهواتُه وطباعُه، إلا أنها كنور النجم فى تألُّقِه ولألائه من إشراق روحه وصفائها؛ وقد ارتفع بآدميته فوق نفسها؛ فأصبح فى الناس ومعه سماؤُه، يجعلُها بين قلبه وبين الدنيا

والرجل إذا بلغ هذا المبلغ كان حياً كالميت ساعةَ احتضاره؛ ينظرُ إلى كل ما فى الحياة نظرةَ من يتركُ لا من يأخذ. ومن يعتبرُ لا من يَغترّ، ومن يلفظ لا من يَتذوّق، ومن يُدرك السرّ لا من يتعلق بالظاهر. ويرى الشهوات كأنها من لغة لا يعرفها، فهى ألفاظ فيها معانى أهلها لا معانيه، وإنما تلبسُ كلماتُنا معانيها من أنفسنا. وفى النفوس مثلُ الهشيم؛ إذا وقعت فيه المعانى المشتعلةُ استطار حريقاً وتَضرَّم، وفيها على المجاهدة مثل الماء؛ إذا خالطته تلك المعانى انطفأتْ فيه وخمدت

وقد سألتُ الشيخ مرة: كيف تحدثُ الكراماتُ والخوارق للأنسان؟ فقال: يا ولدى، إن الانسان من الناس المحجوبين يتصرَّف فى جسمه ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئاً، فاذا أبليَ فى المجاهدة ووقع فى قلبه النور، تصرَّف فى روحانيته ولا يكاد يملكُ لجسمه شيئاً، فمن أطاق أن يَنْسلخ من بشريته، واتسعت ذاته فى معانى السماء بمقدار ما ضاقت من معانى الأرض، وكان مُعداً لأن يتحققَ فى روحانيته، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق الاعتدال — فقد شاع فى الكون وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التى تهدم فى العالم وتبنى، وتفرِّق وتجمع، وتنقل الصُّوَرَ بعضَها إلى بعض؛ فان الكون كلّه جوهرٌ واحد هو النور. حتى الجبلُ هو نورٌ صخرىّ، وحتى البحر هو نور مائىّ، وحتى الحديدُ والذهبُ والتراب، كلُّ ذلك نور[1] صرَّفتْه القدرةُ الآلهية تصريفها المعجز، فكان على ما نرى: ظاهرٌ مخيّلٌ بلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقةٌ قارّةٌ على غير ما نرى. ومن ذا يعقل أن الصخر نورٌ متجمدٌ إذا لم يكن له إلا عقلُ عينه وحواسِّه، ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسه وعينه قولَ الله تعالى: « وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهى تمرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ اللهِ الذى أتْقنَ كلَّ شىء. » ؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتة، غير أنها تمرُّ بأرضها وتموج فى نفسها؛ ومتى تأذَّنَ الله أن ينكشف نورُ كلامه للعقل الانسانىّ، فستكون هذه الآية علماً جديداً فى الأرض يُثبت أن السحاب والجبلَ مادةٌ واحدة وصُنعٌ واحد

ويالها سُخريةً بالانسان وجهله! فانه إذا كانت الحقيقةُ غير مانرى، فكل شىء فى الدنيا هو ردٌّ على النظر الانسانىّ، ويكاد الجبلُ المظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للانسان: « كذَبْت! »

فالشأنُ فى الخوارق والكرامات راجعٌ إلى القدرة أن يسلّط الانسانُ الروحانى مافيه من سر النور على ما فى بعض الأشياء من هذا السر، وتلك هى طاعةُ بعض الكون لمن ينصرفَ عن المادة ويتصل بخالقها

فاذا بقى فى الرجل الروحانىّ شىءٌ من أمر جسمه يقول: « أنا ... » لم يكن فى الرجل من تلك القدرة ذرة؛ فان هو حاول أن يخرق العادة أبى الكون أن يعرفه إلا كما يعرف حجراً مُلقىً يحاول أن يتصرَّفَ بالجبل الذى هو منه فينقله أو يزحزحه أو يزلزله

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخْذٌ من حقوق هذه الـ « أنا ... » فى إنسانها، ولا شرّ على الارض مطلقاً إلا وهو إضافةُ حقوق اليها؛ فحين لا يبقى له حقٌّ فى شىء عند نفسها، يجب لها الحق على كل شىء. وهذه هى الكرامة؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَن أكرمه الخالق

فمن أراد أن تتصل نفسُه بالله فلا يكنْ فى نفسه شىءٌ من حظ نفسه، ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة: يكون إيمانُهم بالله فكرةً تذكر وتُنسى، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى.

---

(١) كلمة (النور) هذه هى التى يعبر عنها اليوم بالكهرباء، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون

وأنت ترى رجالَ الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم ، على خلاف غيرهم من الناس ؛ فهؤلاء كلٌّ أرواحهم فى مطاعمهم ومناعمهم ؛ ومن ثَمَّ لا يجرى الشيطان من الأوّلين إلا فى مجارٍ ضيقة أشد الضيق لا يكاد ينفذُ منها إلى فكر أو شهوة أو حُلم من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم يَعبُّ عُبابُه فى الأسفل والأعلى

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذ فى دمشق ، فنبهني كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأتُه عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حاوروه أو صارعوه ؛ فقلت للشيخ : إن من حقك عليّ أن أسألك حق عليك ، وما فى نفسى أحب إلى ولا أعجب من أن أرى الشيطانَ وأكلمه وأسمعه ؛ وأنت قادرٌ أن تنقلنى اليه كما نقلتنى إلى ما دخلت بى عليه من عوالمِ الغيب

قال الشيخ : وماذا يردُّ عليك أن ترى الشيطان وتكلمه ؟

قلت : سبحان الله ! لا يُجدى عليّ شيئاً إلا أن أسخر منه

قال الشيخ : فانى أخشى — ياولدى — أن يكون الشيطان هو الذى يريد أن تراه وتسمعه . . . !

قلت : فانى أريد أن أسأله عن سره ، فيكون علماً لا سخرية

قال : لو كشف لك عن سره لما كان شيطاناً ، فانما هو شيطان بسره لا بغيره

قلت : فأريد أن أرى الشيطان لأكون قد رأيت الشيطان !

قال الشيخ : لاحول ولا قوة إلا بالله ! لو كنت ياأبا الحسن بأربع أرجلٍ لهربت من الشيطان بثلاثٍ منها وتركته يجرك من واحدة !

قلت : ياسيدى ، فلو كنت حماراً لبطل عملُ الشيطان فى أرجلى الأربع كلها ، إذ لاحاجة به الى إغواء حمار !

فتبسم الشيخ وقال : ولابد أن ترى الشيطان وتكلمه ؟

قلت : لابدّ

قال : إنه هو يقولها ، فَنَعَم !

* * *

قال أبو الحسن : وكان الشيخ إذا مشى الى أمرٍ خارق بقيتُ معه غائبـــاً عن الحس ، كأنه يُبطل منيّ ما أنا به أنا ، فأصبحُ ظِلاًّ آدمياً معلقاً به . ولاتقع الخوارق إلا ان وجد القوة المُكمِّلةَ لروحه ، وهذه القوة تُستمدُّ من الشيخ الواصل ، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلةٌ نفسيةٌ متميِّزةٌ فى الأرض ، فتتغير الواحدةُ منها بالواحدة إذ تقع فى جوّها فتورق وتثمر ؛ كالشجرة جوٌّ يكسوها وجوٌّ يذبلها وجوٌّ يسلبها سلباً ، وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جوّ

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول ، فرأيتُنا وقد أشرفنا على بناء عظيم ، ورأيتُ أقواماً يتَلقونَ الشيخ ويسلمون عليه ويتبرَّكون بمقدَمِه ؟ فأنكرتُهم نفسى ووجدتُ منهم وحشة ، فالتفتَ اليَّ الشيخ وقال : هؤلاء قوم من الجنّ ، وما اليهم قَصَدنا فلا تشتغلْ بما ترى واشتغل بى

ثم ننتهى الى البناء العظيم ، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى ، ويُدخِلون الشيخَ وأنا خلفه ، ويمرُّون بنا على دنيا مخبوءةٍ تعجز الوصفَ مما لاعينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت ؛ فيقولون : هذه كنوزُ سليمان وذخائره ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً ؛ فرأينا ثمَّ نعيما ومُلكا كبيراً ، ثم انتهينا آخراً الى مغارة خسيفة كأنها عرقٌ من عروق جسم الأرض ، يتفجرُ منها دويٌّ كالرعد القاصف إلا أنه فى السمع كخوار الثور ، إلا أنه ثورٌ خُيلَ اليّ أن رأسه فى قدر جبلٍ عظيم ، يتماق به غبغب[1] فى قدر جبلٍ آخر ، على جسم يسدُّ الخافقين ، فخواره كأنه صراخ الأرض ، وإذا أنا بأقبحِ مكان منظراً ، وأنتنِه ريحاً ، كأنه سجنٌ بناؤه من الجِيَف

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هـذا سجنُ إبليس ، وهو هنا فى هذه المغارة منذ زمن سليمان عليه السلام

قلت : أفمسجونٌ هو ؟

قالوا : وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثال الجبال حديداً يَرْبُضُ به فى مَحبسه ، فلا يتزحزحُ ولا يتحلحل

قلت : وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً ، فكيف به لو كان طليقاً ؟

(١) غبغب الثور وغببه : ما تدلى من لحم ذقنه من أسفل

قالوا : فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ على الناس كافة فيجتمع أهلُ الأرض على شهوةٍ واحدة لاشيء غيرُها ، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلُّ تدبير بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسة ولا يكون بينهم وازع ، فيرجعون كالكلاب أصابها الكَلَبُ وهاج بها ، فأنيابها في لحمها ، لايزال بعضٌ بعضُها بعضاً ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحدٌ يسلمها الى الهلاك ، ويصبح ظهرُ الأرض أعرَى من مَسراة أديم

وإنما يَصلُح الناسُ باختلاف شهواتهم وتنافرها وتنازعها ؛ فبعضها يحكم بعضاً ، وشيء منها يَزَعُ شيئاً ، ومن تخلص من نَزوَةٍ قمع بها نزوةً أخرى ، كالمتزوج المحْصَن ، يحكم بالجلد والرجم على من ليست له امرأةٌ فزنا ؛ وكالغنيّ الواجد ، يحكم على اللصّ الذي لم يجد فسرق ، وهلم جراً . وما يَنشأ الناسُ في ثلاثة أعمار فَيشِبُّون ويكتهلون ويهرمون ، إلا لتختلف شهواتهم وتختلف مقادير الرغبة فيها ، فتتحقق من ثمّ تلك الحكمة الآلهية في التدبير ، ويجد الشرعُ محله بينهم ، كما يجدُ العصيان بينهم محله

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كهول أو شيوخ لبادت في جيل واحد ، وإنه ليس أسمجَ من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدها ، فلا بدّ من شيء يظهرُ به شيء غيره ، كالضد والضد . والمعركة إذا انتصر كلٌّ من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المعركة

قال أبو الحسن : وقلت لهم : فاذا كان الشيطان سجيناً قد رَبضت به أثقاله حتى لهو في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفّه والتضييق عليه — فكيف يَفتِنُ النـــاسَ في أرجاء الأرض ويوسوِسُ في قلوبهم ، حتى لَهو يد بينٌ كل يدين ، وحتى لَهو العين الثالثة لعيني كلّ انسان ؟

قالوا : إن في روحه النارية قوةً تَنفصل منها وتنتشر في الأرض ، كشعاع الشمس من الشمس ، بهذه كُرَةٌ نارِيةٌ ميّتة معلّقة على الأجسام مُرصدة لها ، وتلك كرة نارية حيّة معلقة على النفوس مرصدة لها ، وبهذه وتلك عَمارُ الدنيا وأهلِ الدنيا

قلت : لعلكم أردتم أن تقولوا : « خراب الدنيا وأهلِ الدنيا » فغلطتم فكان ينبغي أن يجيء بدل الغلط . . . . .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خَرَق الثوبُ المسمار . جاز هنا لأمن اللَّبْس أن يكون المفعول به وهو الثوب مرفوعاً وفاعله وهو المسمار منصوباً ، هل جئت — ويحك — تطالبُ النحو أو تطالب الشيطان . . . . . ؟

* * *

قال أبو الحسن : فقطعني الجنيّ (والله) وأخجلني ، ونظرت خلسة الى الشيخ أراه كيف يسخر مني ، فاذا الشيخ قد امّاسَ فلا أراه ، وإذا أنا وحدي بين الجنّ وبإزاء هذا الساحر الذي وُضِعَت عينه في جبهته وشُق فمه في قفاه ... ! فَسُرِّيَ عني وزال ما أجده ، وقلت في نفسي : الآن أبلغ أرَبي من الشيطان ويكون الأمر على ما أريد فلا أجد من أحتشم ولا تَقطَعُني هيبة الشيخ . . . . . !

ووقع هذا الخاطر في نفسي ، فاستعذت بالله ولعنت الشيطان وقلت : هذه أول عبثه بي وجعله إياي من أهل الرياء ، كأن لي شأناً في حضور الشيخ وشأناً في غيابه ، وكأني منافق أعان غير ما أسر ، وقلت : إنا لله ! كدت يا أبا الحسن تتشيطن !

ثم هممتُ أن أنكِصَ على عقبيّ ، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلّى عني لأكون هنــا بنفسي لا به ، وما أنا هنا إلاّ به لا بنفسي ، فيوشــك إذا بقيتُ في موضعي أن أهلك ! بَيْد أن الفارة انكشفتْ لي فجأة ، فما ملكتُ أن أنظر ؛ ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف ، ووقفتُ أرى ، فاذا دخانٌ قد هاج فارتفع يثور ثَوَرَانه حتى تملّأ المكان به ، ثم رقّ ولطُفَ

واستضرَمت منه نارٌ عظيمة ، لها وَهَجانٌ شديدٌ يضطرم بعضُها في بعض ، ويُسمَع من صوتها مَمَمَة قوية ثم خَمَدَت

وانفجر في موضعها كالسَّدّ المُنبثق من ماءٍ كثيف أبيضَ أصفرَ أحمرَ ، كأنه صديدٌ يتقيّح في دمٍ ثم غاض

وتَنبّمتْ في مكانه حَمأةٌ منتنةٌ جعلتْ تَربو وتَعظمُ حتى خفتُ أن تبتلعَني وأذهبَ فيها ، فسميتُ الله تعالى فغارت في الأرض

ثم نظرتُ فاذا كلبٌ أسودُ مُحمَرّ الحمالِيق هائلُ الخلقة مُستأسِد ، قد وقف على جيفةٍ قذرة غاب فيها خَطمُه يعُبُّ مما تسيل به

فقلت : أيها الكلب ، أأنت الشيطان ؟

وأنظرُ فاذا هو مَسْخٌ شائه كأنه إنسانٌ في بهيمة قد امتزجا وطغى منهما شيءٌ على شيء ، أما وجهه ، فأقبحُ شيء منظراً ، تحسبُه قد لَبِس صورةَ أعماله . . . ونطق فقال : أنا الشيطان !

قلت : فما تلك الجيفة ؟

قال : تلك دنيا كم في شهواتها ، وأنا ألتقمُ قلب الفاسق أو الآثم منكم ، كما ألتقم دودةً من هذه الجيفة

قلت عليك لعنةُ الله وعلى الفاسقين والآثمين ، فكيف كنتَ دخاناً ، ثم انقلبتَ ناراً ، ثم رجعتَ قيحاً ، ثم صرتَ حمأة ، ثم كنت كلباً على جيفة ؟

قال : لا تلعن الفاسقين والآثمين ؛ فانهم العبَّاد الصالحون . بأحد المنيين ، وأنت وأمثالك عُبَّاد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس في الدنيا حياءٌ ووقاحة ؟ فأولئك — يا أبا الحسن — هم وقاحتي أنا على الله ! أنا معكم في زهدكم حرمانُ الحرمان ، وفقرُ الفقر ، ولقد أهلكتموني بؤساً ؛ غير أني معهم لذّة اللذة ، وشهوةُ الشهوة ، وغِنىَ الغنىَ ، لا تتمُّ لذة في الأرض ولا تحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً من معانيَّ أو وقاحةً من وقاحتي ! حتى لأجمل الزوجةَ لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها معنى مني ، وكلُّ ما فسدت به المرأة فهو مجازي واستعارتي لها أجملها به بليغة . . . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تجاهدون إنْ تَمَّ ساعةٌ واحدة من حياة عبّادي ، فانظر — رحمك الله — لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هي جهنَّمكم أنتم ، فكيف تكون جهنم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتَني دخاناً لأني كذلك أنبثُّ في القلب الأنساني فمتى تحركتُ فيه حركةَ الشر كنت كالاحتيال لأضرام النار بالنفخ عليها . فمن ثمَّ أكون دخاناً ، فاذا غفَل عني صاحبُ القلب تضرّمتُ في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها ؛ ثم يُواقِع الأثم والمعصية تَهْمَّته فأَبْرُدُ عن قلبه ، فيكونُ في قلبه مثل الحرق الذي بَرَدَ فتاً كل موضعه فتقيَّح ، ثم يختلط قيح أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأةً إنسانية لاتزال تربو وتنتفخ كما رأيت

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرف شيئاً يردّك عن القلب وأنت دخانٌ بَعْد ؟

فقهقه اللعين وقال : ما أشدَّ غفلتك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطان أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئاً يخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبرُ الذي يدفن فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طرفة عين من الزمن فتُنزلون فيه الميتَ المسكين قد انقطع من كل شيء ، وتتركونه لآثامه ، وحساب آثامه ، والهلاك الأبديّ في آثامه ؛ ثم تعودون أنتم لاقتراف هذه الآثام بعينها !

قلت : عليك وعليك أيها اللعين ؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته ؟

قال : أوّه ! لقد أوجعتَني كأنما ضربتني بجبل من نار ، إن نبيَّكم عرفها ، ولكنكم أغبياء ، تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لا عمل ، وكأنه كلامُ إنسان في وقته لا كلامُ النبوة للدهر كلّه وللحياة كلّها . ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس ، فاني أضع المعانيَ التي تعمل ، لا الحكمةَ المتروكةَ لمن يعمل بها ومن لا يعمل

أتدرى يا أبا الحسن ، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل : عُمر وأبي بكر ؟ حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبي ، فتركوني زمناً — وأنا الشيطان — أرتابُ في أني انا الشيطان . . . ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تلعن ، فلستُ قائلها إلا إذا ترحّمتَ عليّ

قلت : عليك وعليك من لَعَنَات الله ؛ قل لماذا ؟

قال : أسائلٌ ويأمر ؟ وطُفَيْليٌّ ويَقْترح ؟ لابد أن تترحم !

قلت : يرحمنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ في لفظة رحمة . لا ، إلا أن تترحّم عليّ أنا إبليس الرجيم !

قلت : فيُغنِي اللهُ عن علمك ؟ لقد ألهمتنيها روحُ النبيّ صلى الله عليه وسلم . إن النبوّة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسير الألفاظ على أسمى الوجوه وأكملها ، فكان روحُ النبي صلى الله عليه وسلم لتلك الأرواح كالأم لأبنائها . وقد رأوه لا يغضب لنفسه

ولا لحظ لنفسه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد فى أمر النفس ، وجمل ناحية الاسراف فيها إسرافاً فى العمل لسعادة الناس . وكلما ارتدَّ الانسانُ لنفسه وحظوظها ارتدَّ إليك — أيها الامين — وأقبل على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك — أيها الرجيم — وأقبل على سعادة نفسه ، وتركُ الغضب وحظوظ النفس هو الصبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصِّديقين ليس صبراً على شيء بعينه فى الحياة ، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كلّه ؛ كصبر المسافر ؛ إن كان عزيمةَ مدةَ الطريق كلها ، وإلا كان فساداً فى القوة ووقع به الخذلان

فهذا الصبر المُعْتزِمُ المصمِّم ، الذى يُوطِّن به الرجلُ نفسَه أن يكون رجلاً إلى الآخر — هو تعبُ الدنيا ، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الانسان فى الدنيا . والمؤمنُ الصابر رجل مُقْفَلٌ عليه بأقفال الملائكة التى لا يقتحمها الشيطانُ ولا تفتحها مصائبُ الدنيا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمنَ يُنْضِى شيطانَه كما يُنْضِى أحدُكم بعيرَه فى سفره . » كأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائباً معتزماً مدةَ سفره كلها لما أنْضَى بعيرَه ، ولو لم يصبر المؤمنُ دائباً معتزماً مدة حياته كلها لما أنضى شيطانَه

فصاح الشيطان : أوَّه ، أوَّه ! ولكن قل لى يا أبا الحسن ، ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قوىّ الايمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفيقَ من سُكْر الغِنى ، فتخلَّص من نزوات الشياطين الذهبيةِ الصغيرة التى تسمُّونها الدنانير ؛ وقد أردتُه على أن يكذب ، فرأى الايمانَ أن يَصدق ، وجَهَدْتُ به أن يغضب ، فرأى الحكمةَ أن يهدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمع ، فرأى الراحةَ أن يرضَى ؛ وسَوَّلْتُ له أن يَحسد ، فرأى الفضيلةَ ألّا يبالى . وأخذ لنفسه من كل شيء فى الحياة بما يثق أنه الايمانُ والصبرُ والهدوء والرضى والقناعة ؛ وأحاط نفسَه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجْتزأ بها ؛ وقَصَر نظرَه على الحقيقة ، ووجد الجمالَ فى نفسه الطيِّبة الصافية ، وأجرَى ما يؤلمه وما يَسرُّه مجرًى واحداً ، ونظر إلى العمر كله كأنه يومٌ واحد يَرْقُبُ مغربَ شمسه ؛ وأخذ من إرادته قوةً أنستْه مالم تُعطِه الدنيا ، فلم يَحْفِل بما أعطت الدنيا وما مَنَعتْ ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن فى الجنة : هذا فى قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زَبَرْجدَة ، وذاك فى قصر من الحكمة أو من الايمان أو من العقل

قال الشيطان : فلما أعجزنى صلاحاً ورضى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً ، وكان رجلا عالماً فقيهاً — سوَّلتُ له أن يخرج إلى المسجد ليعظَ الناسَ فينتفعوا به ، ويُبَصِّرهم بدينهم ، ويتكلمَ فى نَصِّ كلام الله ؛ فَمَعقَد المجلسِ ووَعَظ ، وانصرفوا وبقى وحده ؛ فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء فى الدين من أمر طبيعتهن ؛ وكانت امرأةً جَزْلَةً غَضَّةً ، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها ، وتمشى قصيرةَ الخَطْو مُشاقلةً كالمتضايقة من حَمْلِ أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل ، فيَمْشى مشيتها يَقَظَةٌ وبعضها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقظة ؛ ولا يراها الرجل الفَحْلُ التامُّ الفُحولة إلا رأى الهواءَ نفسَه قد أصبح من حولها أنثى مما تَعصِفُ به ريحها العَطِرة عِطْرَ زينتها وجسمها . وكان الواعظ قد تَرمَّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تأيَّمتْ من سنوات ؛ فلما رآها غضَّ طرْفَه عنها ، ولكنها سألته بألفاظها العذبة عن أمور هى من أسرار طبيعتها ، وسألته عن طبيعتها بألفاظها ؛ فسمع منها مثلَ صوت البلّور يتكسَّر بعضه على بعض وتحدّثتْ له وكأنها تتحدّث فيه ؛ فسمع بأذنه ودمه ؛ ثم كان غَضُّ عينه أقوى لرؤية قلبه وجَمْع خواطره . ورأى صوتَها يشتهى ؛ وعانقته رائحتها العطرية النفّاذة ؛ وأحاطته بجوٍّ كجوِّ الفِراش ؛ وعادت أنفاسُها كأنها وسْوَسةُ قُبَل ، وصارت زَفَراتها كالقِدر إذا استجمعتْ غَلَيانًا ، وطلعتْ فى خياله عُرْيانةً كما تَطلعُ للسكران من كأس الخمر حوريةٌ عريانة ، لها جسمٌ يبدو من اللّين والبَضاضة والنَّعْمة كأنه من زَبَد البحر ؟

قال أبو الحسن : وكنتُ كالنائم فما شعرتُ إلا بصوتٍ كصَكِّ الحجر بالحجر ، لا كتكسُّر البلور بعضه على بعض ، وسمعت شيخى يقول :

أفسَقْتَ . . . ؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

صفحات من الدبلوماسية الاسلامية

السفارات الخلافيـة والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ نحو عام عرضت فى الرسالة الى موضوع السفارات النبوية ؛ وتبادل السفارات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، سواء من الاسلام الى الأمم النصرانية ، أو من هذه الى الدول الاسلامية ، من الموضوعات الهامة التى تشوق بتفاصيلها وما تلقيه من ضوء على علائق الشرق والغرب فى عصور لم يكن الاسلام فيها سيد المشرق فقط ، بل كان يساهم أيضاً بنصيب قوى فى سيادة الغرب ذاته . وقد كان لهذه السفارات رسوم وقواعد تتفق مع صولة الاسلام وتلائم روح العصر ، وكان لها فى بعض الأحيان أثر كبير فى توجيه سياسة الاسلام نحو النصرانية ، أو سياسة النصرانية نحو الاسلام . وقد كانت ريح هذه السفارات تتجه بالأخص من الغرب الى الشرق فى عصور القوة والمجد . ذلك لأنها كانت فى الغالب ترمى الى التماس السلام والمهادنة أو تحقيق بعض المنح والمغانم من الاسلام القوى الظافر ، ولكنها كانت فى عصور الضعف والاضمحلال تتجه بالأخص من أمم المشرق الى أمم المغرب التى تتبوأ مقام الزعامة والنفوذ ، وتعمل لتوطيد سيادتها بالضرب والتفريق بين الدول الاسلامية المتنازعة ، كما كانت تفعل الدولة البيزنطية منذ انحلال الخلافة العباسية وتمزق سيادتها بين مختلف الدول والأمارات التى قامت على أنقاضها ، وكما كانت تفعل اسبانيا النصرانية منذ انهارت الخلافة الأموية القوية ، وانقسمت الأندلس الى إمارات الطوائف ، على أن هذه القاعدة لم تكن عامة ، وإنما كانت ظاهرة ملحوظة فقط ، فكثيراً ما كانت تعقد المعاهدات وتتبادل السفارات بين الدول الاسلامية القوية والدول النصرانية القوية تنظيما للعلائق والمصالح المشتركة بينهما

وسنحاول أن نعرض فى هـذا الفصل الى طائفة من هذه السفارات الشهيرة التى ترد أخبارها أشتاتاً فى تواريخ الشرق والغرب ، وسنرى فيها من أوجه التماثل أحياناً ، ومن أوجه التباين أحياناً أخرى ، مايفسر لنا بعض العوامل التى كانت فى تلك العصور محور العلائق الدبلوماسية بين أمم الاسلام وأمم النصرانية ، ومبعث التجاذب السياسى بينهما

كانت الدولة الأموية دولة الفتح والانشاء ، فلم يتسع وقتها لتنظيم العلائق الدبلوماسية السلمية ؛ وكانت تقف طوال عهدها من جارتها الكبرى ــ الدولة الرومانية الشرقيـة ــ موقف الخصومة والتربص ، فلا نقف فى هذا العصر على كثير من أخبار السفارات المتبادلة بين الدولتين ؛ ولكنا نجد بعد حوادث حصار قسطنطينية الأول وإخفاق الخلافة الأموية فى مشروعها لاقتحام الدولة الشرقية (٥٨ هـ ــ ٦٧٨ م) سفراء الامبراطور قسطنطين الرابع يستقبلون فى دمشق بحفاوة ليعقدوا مع الخليفة الأموى (معاوية) معاهدة الصلح التى ارتضى بها معاوية أن يؤدى الى الدولة الشرقية جزية سنوية متنوعة كانت على ضآلتها عنوان المهادنة والمسالمة من جانب الخلافة . وفى خلافة سليمان بن عبد الملك تردد على دمشق رسل الدولة الشرقية ليقفوا على أمر الأهبة الهائلة التى تتخذها الخلافة للسير الى قسطنطينية ومحاولة اقتحامها كرة أخرى ، وعاد سفير الدولة الشرقية الى بلاط قسطنطينية يحمل عن أهبة الخلافة أروع الأخبار والروايات

ولما قامت الدولة العباسية وتوطدت أركانها ، وقامت فى نفس الوقت دولة أموية جديدة فى الأندلس ، كانت بغداد فى الشرق ، وقرطبة فى المغرب ، كلتاهما قطباً للتجاذب السياسى بين الاسلام والنصرانية . وكانت مملكة الفرنج القوية قد قامت يومئذ فى الطرف الآخر من أوربا لتتزعم أمم الغرب الى جانب الدولة الرومانية الشرقية ؛ فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء التجاذب السياسى بين الشرق والغرب ؛ ومنذ خلافة المنصور ثانى خلفاء الدولة العباسـية نرى مملكة الفرنج تحاول أن تأخذ بنصيبها فى عقد الصلات السياسية مع زعيمة الاسلام فى المشرق ، وفى اقامة التوازن السياسى فى العالم الجديد ، ونرى ملك الفرنج بين يبعث رسله الى عاصمة الاسلام الجديدة (بغداد) فى سفارة الى المنصور . ويضع مؤرخو الفرنج تاريخ هذه السفارة فى سنة

٧٦٥ م (١٤٨ هـ) ، وتقول لنا الرواية إن السفراء الفرنجيين لبثوا مدى حين فى بغداد وعادوا بعد ثلاثة أعوام إلى فرنسا يصحبهم رسل أو سفراء من قبل الخليفة الى ملك الفرنج ، ونزلوا بثغر مرسيليا ؛ فاستقبل ملك الفرنج سفراء الخليفة أحسن استقبال ، ودعاهم الى تمضية الشتاء فى مدينة متز التى كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجى ، ثم دعاهم للتنزه والاقامة مدى حين فى قصر « سلس » على ضفاف اللوار ؛ ثم عادوا بعد ذلك الى بغداد بطريق مرسيليا أيضاً مثقلين بالتحف والهدايا . واستمرت هذه الصلات السياسية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنج عصراً ؛ وزادت أواصرها فى عصر الرشيد قوة وتوثقاً . وهنا نعطف بإيجاز على ذكر تلك السفارات الشهيرة التى تبادلها الرشيد ، وكارل الأكبر أو شارلمان امبراطور الفرنج ولد بيبن ، والتى تنفرد بذكرها الروايات الفرنجية أيضاً ؛ فان هذه الروايات تقول لنا إن شارلمان جرياً على سياسة أبيه ، أرسل الى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى اسحاق ليؤكد بينهما الصلات الودية ، وليسعى لدى الخليفة فى نيل بعض الأمتيازات الخاصة بالنصارى والأماكن النصرانية المقدسة ؛ فأكرم الرشيد وفادة السفراء الفرنج وردهم الى شارلمان بهدية فخمة منها فيل وخيمة عربية وساعة مائية وحرائر وعطور شرقية وغيرها ، وبعث الى ملك الفرنج سفراءه بتحياته وتأكيد صداقته . وقد سر شارلمان بنتائج سفارته الأولى ، فأوفد الى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه اسحاق أيضاً ؛ وتبالغ الرواية الفرنجية فى نتائج هذه المراسلات بين الرشيد وشارلمان ، فتقول إن الرشيد أرسل الى ملك الفرنج مفاتيح الأماكن النصرانية المقدسة ، ومنحه حق رعايتها وحمايتها . وقد وقعت هذه السفارات على ما يظهر فى أوائل عهد الرشيد بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ (١٧١ — ١٧٦ هـ) ؛ ولكن الرواية الفرنجية تؤرخ سفارة الخليفة الى شارلمان بسنة ٨٠٠ م ، ولعلها رد الرشيد على السفارة الفرنجية الثانية . ويختلف البحث الحديث فى أمر هذه السفارات والمكاتبات بين الرشيد وشارلمان ، فيؤيد البعض صحتها وينكرها البعض الآخر ، أما نحن فنرجح صحتها[1]

(١) نحيل القارىء إلى البحث الذى كتبناه فى هذا الموضوع فى كتابنا «مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام» ص ١٣١ — ١٣٧ والمصادر المذكورة فيه — وراجع أيضاً :
Reinaud : Invasion des sarrazins en Fance p. 92 & 115 — 117

وتستطرد الرواية الفرنجية ؛ فتذكر أن هذه العلاقات الودية بين بغداد ومملكة الفرنج ، استمرت بعد وفاة الرشيد وشارلمان ؛ وأن المأمون ولد الرشيد بعث إلى « لويس » ولد شارلمان وملك الفرنج من بعده سفارة أخرى لتأكيد المودة والصداقة بينهما ؛ وتشير الرواية الفرنجية فى ذلك الصدد إلى ما كان لنفوذ الرشيد قبل وفاته من التأثير فى سياسة خوارج البحر المسلمين وإحجامهم عن مهاجمة الشواطىء الفرنجية والرومانية ، وإلى ما كتبه البابا ليون الثالث إلى شارلمان بعد وفاة الرشيد من أنه إذا كان خوارج البحر المسلمين لا يحترمون بعد شواطىء الأمبراطورية الفرنجية ، فذلك لأن نفوذ الخليفة فى نفوسهم قد ذهب بعد وفاته

ونستطيع أن نرجع هذا التقرب بين بغداد ومملكة الفرنج إلى بواعث سياسية لها قيمتها ؛ ذلك أن الدولة العباسية الفتية ما كادت تقوم على أنقاض الدولة الأموية فى المشرق ، حتى بعثت الدولة الأموية فى الأندلس من جديد على يد عبد الرحمن الأموى (الداخل) ، وأخذت فى الاستقرار والتوطد ؛ وكان قيام هذه الدولة الجديدة فى اسبانيا يثير فى الخلافة العباسية ومملكة الفرنج معاً جزعاً ومخاوف جديدة ؛ أما الخلافة العباسية فلأنها كانت تعتقد أنها قد سحقت الدولة الأموية نهائياً واجتثت أصولها وفروعها فلن تقوم لها قائمة بعد فى المشرق أو المغرب ؛ فلما استولى عبد الرحمن الأموى على الأندلس وأقام به ملك أسرته من جديد ، أخذت الدولة العباسية تخشى بحق أن تنازعها هذه الدولة الخصيمة زعامة الاسلام ، أو أن تبلغ من القوة مبلغاً يحملها على التفكير فى مقارعتها ومناوأتها والاغارة على أملاكها الأفريقية ؛ وأما مملكة الفرنج فقد كانت تخشى اجتماع كلمة الأندلس بعد تفرقها مدى حين ، وهو تفرق مهد للفرنج استعادة الأراضى الاسلامية فى غاليس وافتتاح ثغر أربونة آخر معقل للاسلام فى فرنسا ؛ وقيام الدولة الاسلامية الجديدة فى الأندلس موحدة الكلمة موطدة الدعائم يعرض مملكة الفرنج إلى خطر الغزوات الاسلامية كرة أخرى ؛ فكانت مملكة الفرنج ترقب قيام هذه الدولة بجزع ، وتلتمس الوسائل لسحقها قبل أن تستفحل وتغدو خطراً داهماً عليها ؛ ومن ثم كانت سياسة الفرنج فى تشجيع جميع الزعماء الخوارج على عبد الرحمن الأموى ، والعمل على إضرام نار الحرب

الأهليــة في الأندلس ؛ وكان اقتحام شارلمان للبرنيه بتحريض الزعماء الخوارج ليحاول افتتاح شمال الأندلس ؛ ومن ثم كانت هذه العلائق والمراسلات الدبلوماسية التي تبادلتها الخلافة العباسية مع مملكة الفرنج ، ولم تكن بلاريب بعيدة عن الفكرة المشتركة في التعاون على سحق الدولة الأموية الجديدة في الأندلس

وكانت ثمة فكرة مماثلة تحمل الدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية خصيمة الدولة العباسية ومناوأتها في المشرق على عقد التفاهم والصلات الودية ؛ فكانت بين أمراء بني أمية وقياصرة قسطنطينية مراسلات وسفارات سياسية هامة . ففي سنة ٨٣٦ م (٢٢٥ هـ) بعث الأمبراطور تيوفيلوس إلى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس سفراءه بهدية فخمة ورسالة يدعوه فيها إلى التحالف ، ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق ؛ وكانت هذه المحاولة الدبلوماسية من جانب قيصر قسطنطينية على أثر اضطرام الخصومة والحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية وعيث المأمون ثم المعتصم في أراضيها . فرد عبد الرحمن ابن الحكم على القيصر بهدية فخمة وبعث اليه سفيره يحيى بن الغزال ، وهو من كبار الدولة وفحول الشعراء فأحكم بينهما الصلة والتحالف . على أن علاقة الأمبراطور بصاحب الأندلس لم تتعد المراسلة والمجاملة ، لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التي رسمها من الامتناع بالجزيرة والاقتصار على توطيد ملك بني أمية فيها ، حتى عمد الناصر إلى تغيير هذه السياسة والتدخل في شئون المغرب لظروف وحوادث عرضت يومئذ

ونعود إلى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية ، تاج العلائق بين الاسلام والنصرانية في تلك العصور ؛ ففي أواخر القرن الثامن كان على عرش قسطنطينيــة امرأة وافرة الذكاء والعزم هي الأمبراطورة إيريني زوج الأمبراطور ليون الرابع ، وكانت وصية على ولدها قسطنطين أثناء طفولته ؛ ولكنه لما كبر وحاول أن يقبض على زمام السلطة ، ناوأته وقاومته حتى ظفرت به ، وزجته إلى ظلام السجن بعد أن سملت عيناه بأمرها ؛ فانتهز المسلمون فرصة هــذه الاضطرابات وغزوا آسيا الصغرى مراراً حتى اقتربوا من البوسفور ، وقاد هارون (الرشيد) وهو يومئذ ولى عهــد أبيه المهدي بنفسه معظم هذه الحملات ، فاضطرت إيريني إلى التماس الصلح ، وبعثت رسلها إلى هارون ، وهو يعسكر بجيشه على مقربة من البوسفور ، تطلب الصلح والمهادنة ؛ فأجابها الرشيد إلى ما طلبت ، وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت إيريني بمقتضاها أن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية مقدارها سبعون ألف دينار ، وتبادل الرشيد والأمبراطورة بهذه المناسبة بعض الهدايا والتحف الملوكية(٧٨٢ م ـ ١٦٦ هـ) ، ولما تولى الرشيد الخلافة بعد أبيه ، كانت إيريني قد خلعت وجلس على عرش قسطنطينية نيكيفروس (ويسميه العرب نيقفور) كبير الخزائن ؛ فما كاد يجلس على العرش حتى بادر باعلان الخصومة على الخلافة وبطلان معاهدة الصلح ، ورفض أداء الجزية والمطالبة بما أدى منها ؛ وتنقل الينا الرواية العربية صورة الانذار الذي وجهــه نيكيفروس على يد سفرائه إلى الرشيد وفيه يخاطب الرشـيد بما يأتي : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيــدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه اليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي هـذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا » ؛ وألقى سفراء الروم أمام عرش الرشيد حزمة من السيوف إشارة باعلان الحرب ، فغضب الرشيد لهذه الجرأة أيما غضب ؛ وكتب بنفسه على ظهر كتاب ملك الروم ما يأتي : « من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ؛ أما بعـد فقد فهمت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام » [1] ، وبادر الرشيد إلى غزو آسيا الصغرى على رأس جيش ضخم ، فاجتاحها حتى هرقلية (٨٠٦م) فاضطرب نيكيفروس إلى طلب الصلح ، وأرسل إلى الرشيد سفارة على رأسها أسقف سينادا ، وعقدت بين الفريقين معاهدة جديدة ، يتعهد فيها القيصر باصلاح الحصون المخربة ، وبأن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار ، وأن يدفع عن نفســه ثلاث قطع ذهبية من نوع خاص وثلاث أخرى عن ولده عنواناً لخضوعهما لأمير المؤمنين

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان
المحامي

(١) وتورد الرواية العربية نصوصاً أخرى لهذين الكتابين — راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦١ — وصبح الأعشى ج ٦ ص ٤٥٧ — وتنقل الرواية البيزنطية هذه الرواية ، ولكنها لاتؤيدها من عندها — راجع : Finlay : Byzantine Empire Ch. II — I

منازل الفضــــل

١ — قصر الوالدة

للأستاذ محمد محمود جلال

يوم أراد الله أن أفرغ من الدراسة الابتدائية ، وقد أتممتها في كنف الجمعية الخيرية الاسلامية في معهدها ببنى مزار ، اتجهت أنظارنا إلى القاهرة عاصمة البـــلاد تطلعاً لأكمال الدرس في معاهدها الثانوية

لم يكن من ذلك بد ، وقد قضت سياسة دنلوب ، بتركيز الدراسة الثانوية بالعاصمة ، وحرمان مديريات القطر من الخطوة الثانية للتعليم فضلاً عما أفسد من براجه وشوه من خططه

كثر التردد على القاهرة ، بين تقديم الطلب ، والاستعداد للكشف الطبي ، والحرص على الظفر بمكان ، إذ كان نطاق المدارس ضيقاً ومحاطاً بكثير من القيود تمشياً مع تلك السياسة

كان ذلك في أواخر سنة ١٩١١ أى من نحو ربع قرن

فاذا كان يوم الجمعة ، وذهبنا إلى ملعب الكرة بالحلمية الجديدة مررنا بشارع البرمونى . هناك يستوقف النظر تجمع كثير من النسوة والصغار يختلفن إلى دار في مواجهة « زقاق » صغير ينتهى بها فتغيره وتحيله ميداناً فسيحاً للرحمة والاحسان . . .

كانت تلك الدار « مبرة محمد على » تجد فيها فقيرات الأمهات وفقراء الأولاد رعاية عالية ، وعطفاً كريماً : يلقين فيها يد الطب تأسو ، ويد البر تواسى ، تستنقذ اليدان بفضل الله أناسى من خلقه من براثن الأمراض وآلام الحياة

فاذا سألت لمن هذا الـمَـكَم ؟ ومن يقوم على هذا البر ؟ ومن يغذى تلك الشجرة المباركة ؟ أجابك المانون الداعون هى : « الوالدة » أطال الله بقاءها

« الوالدة » ! ! وأى اسم في الوجود أولى بهذه المعانى من هذا الاسم الكريم ؟ وهل في الدنيا أكثر عطفاً من الوالدة ! !

أليس بين الاسم والفعل خير تناسق وأوثق صلة ؟

إنا نرى اليوم في مصر كثيراً من مظاهر البر ، وأماكن للعلاج وافية الأعداد ، ولكنا حين نذكر ما كان ، وحين أكتب اليوم ، إنما ننظر وأكتب عما كان منذ ربع قرن . كانت « مبرة محمد على » لا تقل في عين الفقير عما يرى اليوم في عجيبة « الراديو » والطيران

ولما أعلنت الحرب بين إيطاليا والدولة العليــة ، ونزلت جيوش الأولى شاطئ طرابلس ، تحمس المصريون ذاكرين ماهم فيه وما بهم من ويلات الاحتلال الانجليزى ، يأسون جراح المجاهدين بفضل من المال وشئ من العون ، رأينا « الوالدة » تتقدم الصفوف وخلفها الفضليات من نساء مصر يقمن بواجب الاغاثة ، ويجمعن التبرعات ، يوفين ناعليهن لله ، وما في ذمتهن للحق والأخلاق

هذه « سوق الاحسان » نافقة ترأسها « الوالدة » ، وتلك دعوة للتشاور بين سيدات مصر في «قصر الوالدة» ، وفى الصباح تتحلى صحف مصر بفاتحة التبرعات مصدرة باسم « الوالدة »

وفى الحلمية الجديدة بناء جميـل ، تسمع به حركة ولا تسمع فيه لغواً ، يجمع كثيرين من أبناء البلاد ، يتعلمون الصناعة ، ينقل إليك الأثير نغمات آلاتهم توقع الأنشودة في تدعيم صناعة البلاد

فاذا خطوت إلى شارع سليمان باشا ، راعك مخزن فاخر ، نخاره وروعته قطع الأثاث المتقن برعت فيــه أيدى المصريين والعبقرية الفنية الموروثة ، فبينا نرى المخازن والمحال تطلى وتنسق إعلاناً عما بها إذا بذلك المعرض يحلى المكان ويعلن عنه

والعهد بذلك الحى أنه « أفرنجى » في مساكنه ومقاهيـه ومخازنه ، وإنك لمفترض إذن أن هذا المكان « لكريجر » أو « لجانسان » ، أو غيرهما من تجار الأثاث الثمين . ولكنه قطعة من مدرسة الحلمية وقفت كالراووق لا تبقى للعرض إلا ماله قيمة حقيقية ، تعلن في صدق عن حقيقة البلاد وأبناء البلاد وإنتاج البلاد ، في الحى الذى لا يقطنه إلا الأوروبيون

وكذلك كانت « الوالدة » شغل السمع والبصر

التحقت بالمدرسة السعيدية ، أجتاز من أجلها جسر قصر النيل في اليوم مرتين ، فأمر بقصر « الوالدة » مرتين ، ومن العجب أن يزداد المرء في كل نظرة شغفاً بالقصر ، وألا يكون لتكرار رؤيته إلا استزادة الاعجاب وامتلاء الدين من محاسنه ، على نقيض ما يعرو الانسان عادة من ملل إذا تكرر النظر ، ولو في نزهة

كان « قصر الدوبارة » أحب أحياء القاهرة إلىّ . فاذا أردت ترويحاً عن نفسى سرت على شاطئ النيل حذاءه ، وإذا شعرت بضيق طلبت تفريجه فى سويعات المساء بين مغانيه ، وإذا جلت بالجزيرة وقفت على النيل من الشاطئ الغربى أنظر اليه ، وكثيراً ما طالمت المسير من دروسى فى تلك الناحيــة فساغ فهمها وانجلى الكرب

بل إنى تمنيت أن يكون لى فيه سكن ، وأن أصبح من قاطنيه ، فلما استقر بنا المقام بشارع « الحوياتى » حمدت الله وقلت هذه خطوة فى القرب منه ، وقد أوشكت على الخروج من سلك الطلبة

أدركنا من الحياة أكثر ، وفهمنا بتقـدم السن وتحول الأيام مالم نكن ندرك من قبل ، فاذا بى أبدأ اليوم متنزهاً فى البكور بقصر الدوبارة ، وأختم المساء بجولة فى ربوعه ، إذا أحسست القذى من قصر « العميد » لقيت الفرجة من «قصر الوالدة » كما يذهب عنك معرض الصنائع بشارع سليمان باشا ، غصة التسلط الأجنبي فى ميدانى الصناعة والتجارة

وفى سنة ١٩٣٢ أراد الله أن أظفر بشىء من الأمانى ، فسكنا داراً بالحى ذاته ، وبلغ من عرفانى لجميل الله ، وفيض السرور على قلبى أن قيدت فى جريدتى الخاصة هذا الانتقال بما يستحقه

فلما أن كان يوم جمعة ، ومررت بالقصر فى طريقى الى مسجد «الشيخ بركات» هالنى اعلانات تلصق على الجدر الأنيقة ، يضعها صبيان دون اكتراث ، فأخذت ووقفت أقرأ ، الله أكبر ، هذه اعلانات عن بيع أثاث القصر !!!

لك الله يادار ! كنت مهبط رحمة ، فرفعت بك « الوالدة » علم البر ، وكنت منزل الفضل فدعوت للسلم ، وقمت بانشاء معاهده وتمويلها ، كنت آية الفن من الطلاء الخارجى والباب الكبير الجميل الى الأثاث الداخلى الفاخر ، وها أنت اليوم يعبث بجدرك صبية وقد كان يهاب المرور بها كبار ؛ ويباع الأثاث ، فتستباح من الشارين الدار . ولم ذلك ؟ وفيم السخرية والتفريط فيك ووارثوك فى نعمة وبسطة من العيش ؟! وكيف هنت وأنت مصـدر العزة لبيوتات طاهرة ، وكنت الغوث والابقاء لدور وقصور

وكذلك أصبح يوم الجمعـــة عندى — وهو يوم الجمع والمرحمة — يوم العظة والاعتبار ، يوم كشف لى فيه عن « مبرة محمد على » سنة ١٩١١ ، ثم رأيت فيه ختام الآية ، وكيف عبثت أطماع الدنيا بالتراث المجيد

ومنذ حل الأجل ، وبدأ المكلف بالبيع من الخبراء ينفذ اعلانه أقصرت عن الطريق وتخليت عن عادتى ، وكرهت أن أرى كعبة العافين ومنار الفضل مزدحمة المسالك بالتفرجين والعابثين

علم أبى — عليه رحمة الله — بالبيع فطلب الىّ أن أزور القصر وأشترى أثاثاً ينقصنا لغرفة المائدة ، وبقى بالقاهرة يومين ثم سافر الى الريف لبعض شأنه

وحين عودته سألنى هل نفذت رغبته ؟ وهل اقتنيت شيئاً ؟ لقد كنت أهابه على رعايته لى ، وما أظننى خالفت له مدى حياته رأياً ، فلما سئلت لم أعدل بالحق شيئاً ، قلت : لقد كبر علىّ يا أبى — وقد أعجبت بالقصر فتى ، وقدرت أثر صاحبته وأثره فى عالم الخير والعلم لهذه البلاد شاباً — كبر علىّ أن تشترك قدماى فى امتهانه فلئن لم يأبه منا ريحه ذوو الشأن ، ولئن تدفقت الجموع تظفر بما يقتنى ، فانى سعيد بأن أقتنى تذكاره ، وأن أفى له بشىء من احترام الذكرى ، ثم والأثاث موفور فى مخازنه ، وجيـده اليوم معتدل الثمن

سر أبى بنظرتى ، وقال على الفور : « إنك أشبه بجدك ، فقد ذهب مرة مع فريق من صحبه لزيارة الخديو اسماعيل بالآستانة ، وكانوا فى جملة من كبراء البلاد يطالبون بتدخل الباب العالى لجلاء الاحتلال — والدولة فى ذاك الوقت صاحبة السـيادة — فلما جلسوا قدمت اليهم السجاير ، وطاف الخدم يشعلونها للضيوف الكرام ، أبى جدك أن يشعل سيجارته ، وكان الخديو اسماعيل قد كف بصره

فلما سئل من بعض رفاقه بعد الانصراف من الزيارة ، قال : « إنى نقدت ظلمه ، ومدحت إصلاحه — وهو خديوى — ولم أدخن أمامه بصيراً ، وإنى لأكره أن أدخن — وهو مكفوف البصر — احتراماً لعبرة مآله ، وصوناً لذكرى عزته الأولى

قلت : الحمد لله ، لقد أفدت وفاء وعلماً أين منه اقتناء حطام سريع البلى مهما دام ، وقمت بما يرضى ضميرى ولو فى أضيق مجال

* * *

واليوم أغلقت أبواب القصر ؛ فلا حاجب ولا قاصد ،
واليوم تمر بقاعة (يورت) الأمريكي على قرب منه فترى رتل السيارات يزحم الطريق ، جاءت بأصحابها يستمعون الى ما يلقى في العلم والفن والأدب ، بينا القصر المظيم ، المقر السابق للسابقة بين المحسنين وأركان العلم يكاد يطمس سنا طلائه نسيج العناكب لا يرتفع فيه صوت بحديث ولا علم ولا فن

أليس «قصر الوالدة» أولى مكان بنور العلم والأدب والفن ؟ إنه أولاها ، وإنه أرحب الأمكنة للفضل منذ نشأته

فهل نرى في ورثته من الأمراء في القريب ما يعيده الى مكانته ويعيد اليه روح الأنس بخير ما خلق الله للانسان فيكون ذلك استمراراً لروحه ، وأنساً لروح سكنت الخلد — هي روح « الوالدة » . . . ؟

محمد محمود جلال
المحامي

« روز »

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كان الظلام قد خيم بعد غيوب الشمس ، وذهبت معارف الأرض ، وانتقل كل مجسّد الى عالم الأشباح الغامضة ، وتسربت الألوان المختلفة في السواد الذي غمرها ، وتحول الجو من طلاقة الاعتدال وطيبه الى البرد ، كمادته في هذه المناطق الصحراوية ، فتحول أهل البيت الى الحجرات طلباً للدفء ، أو اتقاء لما يجر اليه التعرّض للقر ، وكان البواب النوبي يتمشى في الحديقة بعد أن خلت من المتنزهين وفي يده مسبحته الطويلة التي لا تفارقه ، فهي على عنقه كالعقد إذا لم تكن حباتها بين أصابعه ، وكان قد وصل الى آخر الممر ، ودار ليعود ، فقال له حوضُ الآذريون — أو هكذا خيل اليه — :

« هشش ! »

فنظر مبهوتاً الى هذا الزهر الأصفر ذي الحلل الأسود ، وتعجب من نطقه ، فلولا فرط الدهشة للاذ بالفرار ، فقد كان من المؤمنين بالعفاريت وركوبها الناس واتخاذها أشكالاً وصوراً شتى ، وتقمصها أجسام الحيوان ، ولم يكن بعيداً في التصور عنده أن تطلع من أحواض الزهر

ومنعته الدهشة أن يجيب بشيء . وأي جواب لمثل هذا النداء سوى الالتفات الى مصدر الصوت ؟ ولا مصدر له يعلمه سوى هذا الحوض

وعاد الصوت الخفي يقول :

« هشش ! »

ولكنه لم يصدر في هذه المرة عن الحوض ، بل انتقل الى ما وراء الزرع المفرّش على السور الحديدي ، وكفى بهذا التحول سبباً للرعب ، فما يمكن أن يجيء الصوت من الأمام مرة ، ومن الخلف مرة إلا إذا كان صاحبه عفريتاً من الجن ، فانطلق البوّاب يعدو كالنعامة الى حيث يرجو أن يجد أنيساً يذهب عنه الخوف

وسخط العفريت لما رأى فريسته تفلت من يده ، وتخلص من ألفاف الشجر المتشجّنة تخلصاً لا يعود بحسن السمعة وطيب الأحدوثة على الجن قومه ، ولا يشهد لهم بالبراعة والحذق ؛ فلما صار في الممر أخذ ينفخ من الجهد وينفض التراب عن ثيابه ، ويلعن البرابرة وجبنهم . ولما أوسعهم لعناً ، وشفى قلبه مما يجد عليهم تحول الى نفسه ، ولم يبخل عليها بحظ وافر من التعنيف والتقريع على ما كلفته سخافته من الزحف وراء الشجر الأشيب من تلويث الثياب والتعرض للحشرات ، وأحسّ — حين ذكر الحشرات — كأن بعضها — جيشاً كاملاً منها — يسير على ظهره تحت ثيابه

وفي هذه اللحظة ، وقبل أن يتم ما بدأه من إبداء الرأي في نفسه ويصارحها به على أكل وجه ، سمع من الشرفة صوتاً يناديه باسمه ، فكان من أثر المفاجأة أن رد : « نعم » بصوت عال ، ولم يكد ينطق بهذه الكلمة المفردة حتى أدركته الندامة وعاد سخطه فمظم على نفسه ، فلو استطاع أن يجرّدها أمامه شخصاً لقتله بلا تحرّج ، ولم يسعه بعد أن وشى بنفسه إلا أن يمشي الى حيث دُعى فأجاب ، وكان الله في عونه حين يدعو الفضول الى السؤال !

* * *

وفي هذه اللحظة كانت « روز » — كلبة البيت — قد شبعت

من تفتيشه والاحاطة بداخلـه ومخارجه ، واختبار الكراسى والبحث عما عسى أن يكون تحتها ، وما لعله مخبأ وراء الستائر ، وحدثتها نفسها بالخروج إلى الحديقة لعل فيها قطة ، أو عظامة تتسلى بها ، فقد كانت « روز » طالبةً لهو برىء ، وسيان عندها أن يكون اللهو به حيواناً مثلها أو جماداً ، ولـكنّ الباب كان مغلقاً اتقاء لتيارات الهواء ، ولو لم يكن فى وسع « روز » أن تفتحه بغير معونةٍ من الانسان ، فوقفت أمامه – أو لصقَه – وجعلت تحك أنفها فيه منتظرةً أن يدخل داخل أو يخرج خارج

وسرعان ما استجاب الله دعاءها وحقق رجاءها ، فقد دفع صاحبنا الباب ودخل وهو ينفخ ، ولم يكن يدرى أن « روز » وراءه وأن أنفها أصابته منه ضربة قوية ، أدارت رأسها وآلمتها وأخرجتها عن طورها . وكانت « روز » كلبة رقيقة الاحساس لينة العريكة ، وقد ألفت أن يداعبها الناس – رجالاً ونساء وأطفالاً – واعتادت إذا مسها أذى غير مقصود ، أن يسرع المسيء إلى ملاطفتها والاعتذار اليها ، ولذلك أدهشها أن ترى صاحبنا يضربها بالباب ويكاد يبطط لها أنفها الجميـل ، ويمضى كأنما لم يحدث شيء على الرغم من الصرخة العالية التى أطلقتها من الألم ، وهاجها هذا السلوك فانطلقت تجرى حتى صارت أمامه ونبحته نبحتين كأنما تقول له :

« لحظة من فضلك ! لحظة واحدة ، إذا سمحت ! »

فقال صاحبنا بجفوة : « اذهبي عنى – فلست أحب الكلاب ! »

فقالت « روز » :

« صحيح ؟ أهو ذاك ؟ ومن تظن نفسك أيها الحلوف القذر حتى تضرب فتاة مثلى على أنفها ؟ »

فشوّر صاحبنا بيديه مرة أخرى ليصرفها ، ولـكنها ألحت عليه بالنباح قائلة :

« إن أمثالك فى الدنيا هم الذين يحدثون الثورات والفتن والمزاهز . وما أظن بك إلا أنك من الملاك الجشمين الذين يظلمون الفلاحين العاملين فى أرضهم ، ويلقون بهم فى أحضان المهيجين والبلاشفة . . . »

فضاق صدر صاحبنا ، ورفسها برجله . ولم يرفسها فى الحقيقة وإنما حرك ساقه حركة الرفس ، فلم تصبها رجله ، فقد كان يريد المعنى لا الفعـل ؛ ولـكن « روز » كانت كلبة حرة تكفيها الاشارة ، فغضبت جداً لكرامتها ، ووثبت وثبةً مكنت أسنانها الحادة من طرف السترة فغرزتها فيها وجذبتها بكل ما فيها من قوة ، فانهارت الظهارة ، وتكشفت عن البطانة ، وكانت لا تزال فائرة النفس ، فهمّت بوثبة أخرى ؛ ولـكن فتاة من أهل البيت دخلت فى هذه اللحظة ، فصاحت بها :

« روز . . . روز . . . ! »

فالتفتت « روز » على الصوت ، وأدركت بذكائها الكلبى أن لا رجاء لها بعد ذلك فى مواصلة الكرّ والفرّ ، فدسّت ذيلها بين فخذيها واختفت

وقالت الفتاة لصاحبنا :

« آسفة جداً . . . »

فنظر صاحبنا اليها مقطبا ، ثم صوب عينه الى ســـترته ، وتناول الطرف المهلهل بيمينه ، فغلا دمه ، وشعر برغبة جامحة فى أن ينقص تعداد القطر المصرى واحدة ، غير أنه استطاع بجهد أن يكبح نفسه ، فما يليق أن يكون كالكلبة حماقة ، ولا سيما فى حضرة سيدة وقال :

« لا بأس ! لا بأس ! أعني لا شيء . . . هى غلطتى ، وإن كنت لا أعرف كيف أسأت اليها . . . هل اسمها روز ؟ »

قالت الفتـاة : « نعم . . . روز . . . اسم جميـل ، أليس كذلك ؟ »

قال : « ولـكن الفعل غير جميل . . . والبذلة جديدة قبحها الله . . . أعني الكلبةَ لا البذلة . . . معذرة ! . . على كل حال يجب أن أرحل الآن ، فما أستطيع البقاء بهذه الثياب الممزقة . . أستودعك الله ! . . . »

وهكذا مزقت « روز » ثيابى . . . ومن أجل هذا صرتُ أكره الكلاب بأنواعها ، من مجازية وحقيقية ، ولا أطمئن اليها ، ولا آمن غدرها ، ولى الحق . أليس كذلك ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

٤ ـ قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

ثانى غزاة المكروب

« القس الماكر الذى مالق الكنيسة والسلطات وهو يحتقرها جميعاً لكى يعيش ولكى يعمل فى سكون ؛ الذى ناضل نضال الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند ؛ الذى أثبت من مرق اللحم أن المكروبات ككل الأحياء لابد لها من آباء ؛ الذى أهدى للعلم مثانته الوبيئة ، ذلك الأثر الوحيد الذى بقى للناس إلى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد »

« مات لوفن هوك وا أسفاه ! فمَن بعده لدراسة تلك الحيوانات الصغيرة ؟ » . هكذا تساءل رجال الجمعية الملكية بانجلترا ، وهكذا تساءل رُومور ، Réaumur* ورجال الأكادمية الفرنسية الألمعيّة فى باريس . سؤال أجابته الأيام سريعاً ، فان قشاش « دُلفت » ، لم يكد يُغمض عينيه فى عام ١٧٢٣ ليستريح تلك الراحة الطويلة الأبدية التى استحقها بعد طول جهد وعناء ، حتى ولد فى عام ١٧٢٩ صيّادٌ للمكروب جديد ، وذلك فى بلدة « إسكانديانو » فى شمال ايطاليا على بعد ألف ميل من مضجع «لوفن هوك» . وكان اسم هذا المولود الجديد «لازارو اسپلنزانى» Lazzaro spallanzani ، نشأ وترعرع فاذا به ولد يلثغ بالشعر بينا هو يلعب بالطين يصنع منه الكعك والفطير ، ثم يعزُف عن طينه ويذهب فى فطيره ليلهو بالخنافس والبق والذباب وأشتات الديدان ، يُجرى عليها تجارب قاسية ، هى عبث الصبى



لازارو اسپلنزانى

الذى لا يَحذَق التجربة ولا يدرك مبلغ الألم الذى تأتيه يداه . كان يُغرَم بالطبيعة ويهوى الأشياء الحية ، وبدلاً من أن يُبْرم والديه بكثرة السؤال عنها ، كان يمتحنها بنفسه ، فينزع عن هذه رجليها ، وعن هذه جناحيها ، ثم يحاول أن يُثبتهما حيث كانا . كان يحب أن يعرف كيف تعمل الأشياء ، ولم يكن يأبه كثيراً بأشكالها وظواهرها

وخاصم أهله كما فعل « لوفن » فى تقرير مايدرس من العلوم ، وجاهدهم كثيراً من أجل دراسة المكروب . وكان أبوه محامياً ، فبذل مجهوداً كبيراً فى أن يُحبب الى ابنه وثائق من القانون طويلة ، وصحائف من حجج الدفاع عريضة ، ولكن الصبى كان يهرب من هذا وذاك ، فيذهب إلى بعض الجداول فيقذف سطحها برقيق الحجر ، ويعجب من أن الحجر يقشط الماء ولا يغطس فيه

وكان يُقصَب فى الأمساء على الجلوس إلى دروس لا لذّة له فيها ، فلا يكاد أبوه يولّيه ظهره ، حتى يقوم الى الشبّاك ينظر

* عالم طبيعى فرنسى ولد عام ١٦٨٣ درس الفيزياء والرياضة وبحث فى الحيوان والنبات ، وفى الكيمياء والصناعة ، ومن آثاره قصدرة صفائح الحديد ، ومقياس الحرارة المعروف باسمه ، وبه تنقسم ساق المقياس بين انجماد الماء وغليانه إلى ٨٠ درجة ، انتخب عضواً بأكادمية العلوم الفرنسية

إلى سماء ايطاليا وهى ناعمة كالقطيفة السوداء قد تبعثرت عليها النجوم البيضاء ، ثم يصبح الصباح فيأتى رفاقه فى اللعب يلقى عليهم دروساً فيها حتى أسموه المنجّم

وتأتى الاجازات فيضرب بجسمه المظيم فى الغابات ؛ فذات مرة وقعت عينه فيها على نافورات طبيعية يخرج منها الماء راغياً مزبداً ، فحلق فيها من الدهشة ، وذهب عنه لعب الطفولة وعبثها ، وعاد أدراجه يفكر تفكير الرجال . ماسبب هذه العيون وكيف كانت ؟ لم يحر جواباً إلا حكاية حكاها له ذووه والقسيس : أن فتيات جيلات ذهبن فى الغاب فضللن الطريق بين أحراجه ، فأحسسن الوحشة ، فبكين ، فانقلبت دموعهن عيوناً تتفجر ما شاء الله

وكان « لازارو » ابناً طيّماً ، وكان فيه خُلُق السّاسة ، فلم يجادل أباه ولا القسيس ، وانما سخر من تعليلهم وأخفى سخريته فى نفسه ، واعتزم أن يكشف عن سر هذه النوافير يوماً

وكان «اسپلنزانى» فى صباه شغوفاً بالكشف عن أسرار الطبيعة شغف « لوفن هوك » ، ولكنه خالفه فى السبيل التى سلك ليكون عالماً باحثاً . قال لنفسه : « والدى يصرّ على تعليمى القانون ، وأنا أصر على غير القانون ، إذن فسيلمن مشيئة من تكون » . وتظاهر أمام والده بحب القانون والاقبال على الوثائق الشرعية ، ولكنه أقبل فى كل أوقات فراغه إقبالا مريعاً على دراسة الرياضة والمنطق واللغة الأغريقية والفرنسية ، وفى عطلاته كان ينظر إلى الأحجار تطير فتكشط جلد الأنهار ، وإلى الماء الفوّار يتدفع من النبع الثرثار ، ويحلم بالبراكين تقذف بالنيران مختلفة الألوان ، ويحلم باليوم الذى يفقه فيه منشأها ومنتهاها

واستيقظت فى نفسه الحيلة ، فذهب إلى العالم الطبيعى الشهير « ڤالسنيرى » Vallisnieri وأفضى اليه بمكنون علمه فأكبره الرجل المظيم وصاح به : « إنك يا بنى خلقت للعلوم فما إضاعة وقتك فى كتب القانون ؟ » . فقال الماكر : « ولكن ، سيدى ، إن أبى يصرّ ، وما للابن غير الطاعة ! »

فذهب ڤالسنيرى إلى أبيه غاضباً حانقاً ، فلما لقيه وبخه على العبث بمواهب ابنه وإضاعته فى تعلم صناعة لا يعود عليه منها غير النفع والمال . « إن ولدك يا هذا يبشر أن يكون بحاثة كبيراً . إنه يشبه جاليليو . وسيشرف اسكانديانو ويرفع ذكرها فى الوجود »

ورضى الوالد وذهب الابن إلى جامعة ريجيو [1] Reggio ليحترف دراسة العلوم

وكان الزمان قد استدار قليلاً ، فأصبح طالب العلوم الطبيعية ذا حظ أوفر من احترام الناس ، ونصيب أكبر من الأمن على نفسه وحياته مما كان الحال يوم بدأ « لوفن هوك » ينحت عدساته . فان محكمة التفتيش كانت قد بدأت تتخاذل قليلاً ، وتستر أنياباً كشفت عنها طويلا ؛ فأخذت تطالب الزندقة ، لا عند المعروفين النابهين أمثال سرفيتوس وجاليلو ؛ بل عند النكرات الخاملين ، فملىء هؤلاء المستضعفين تجتثت ، وألسنتهم قطّعت ، وأبدانهم حرّقت . ولم تعد « المدرســة المتسترة » تتستر ، فقد كانت خرجت عن أقبيتها السوداء وقيعانها الظلماء ، إلى ظهر الأرض حيث الهواء والضياء . ونالت الجمعيات العلمية فى كل مكان رعاية الملوك وحماية البرلمانات . وأصبح من المأذون به أن يتشكك النــاس فى الخرافات ، وأن يتحدث الناس حديث الترهات الشائعة ، حتى لبدأ أن يكون ذلك سمة العصر ، والطراز الجديد المختار لذلك الزمان . وأخذ الناس يطلبون الحقيقة وقاموا يبحثون عنها فى الطبيعة . ولم يلبث البحث العلمى ، بما يتضمنه من لذة ومايلبسه من وقار ، أن شق لنفسه طريقاً إلى حظائر الفلاسفة ، فقطع عليهم عزلتهم وحرّكهم عن سكونهم . فقام ڤولتير إلى ريف فرنسا وأوحاشها ، وقضى فيها السنين الطوال يتفقّه فيما اكتشفه نيوتن ، لينشره فى قومه من بعد ذلك ويؤلفهم عليه . ودخل العلم حتى فى دور الندوة ، والصالونات الفخمة ، فاختلط فيها بالسمر النادر ، واختلط فيها أحياناً بالعهر الفاخر . وأكبّ ذوات العصر ، وذوات المجتمع أمثال مدام پمپادور [2] madame de Pampadour على دائرة المعارف المحرمة يطلبون عندها فن توريد الخدود وتزجيج الحواجب ، وصناعة الجوارب ، وإلى جانب

---

(١) من جامعات العصور المتوسطة الشهيرة وهى من أقدم الجامعات الايطالية بعد جامعة بولونيا وكان بها فى القرن الثامن عشر مدرسة للحقوق شهيرة

(٢) هى جين انتوانيت پواسون ، ولدت عام ١٧٢١ من أصل غير معروف ، ونسبت إلى مزارع ثرى ، ثم تزوجت ، وبعد ذلك بسنوات اتصلت بلويس الخامس عشر ملك فرنسا فهام بها ، وظهرت عام ١٧٤٥ فى بلاطه باسم المركيزه دى پمپادور ، فأقامت نفسها راعية للعلم والفن . ومنذ صوح جمالها وجهت همها للسياسة فلاثت وظائف الدولة بأعوانها مدة عشرين عاماً . وكان من جراء نفوذها أن حالفت فرنسا عدوتها النمسا فى حرب سبع السنوات

ما أثاره العصر الجديد الذى عاش فيه اسبالنزانى من الأهتمام بكل شىء كبير وصغير ، من ميكانيكا النجوم الى رقصات الأحياء الصغيرة فى الماء ، أخذ يشيع فى الناس احتقارا مسموعا للدين ، ولكل رأى حمته سلطة من أى نوع كانت ، حتى تلك الآراء التى بلغت من القدم والقداسة مبلغاً كبيراً . ففى القرن الأسبق كان الرجل يعرض نفسه للأذى وحياته للخطر إذا هو قرأ كتب أرسطو فى الحيوان ، وضحك على ما فيها من حيوانات معكوسة مقلوبة لا تمت الى الممكنات بسبب قريب أو بعيد . أما فى هذا القرن فالرجل كان يستطيع أن يكشف عن سنه فى نور النهار باسماً ساخراً وأن يقول ولو فى شىء من الخفوت : لأنه أرسطو لابد من تصديقه ولو كذب . على أن الدنيا كان لا يزال بها جهل كثير ، وعلم كاذب كثير ، حتى فى الجمعيات الملكية والأكاديميات .

وما كاد « اسبالنزانى » أن يتخلص من دراسة القانون ، وما يتبعه من مستقبل ملىء بالمحاكمات التى لا حصر لها ، والمخاصمات التى لا نهاية لها ، حتى قام يحصّل بكل ما فيه من قوة كل ما يستطيع من معرفة ، من أى نوع كانت ، ويمتحن شتى النظريات من أى مصدر جاءت ، وأن ينفض عن نفسه احترام المحجّات الثّقات مهما علا صيتهم وشاع ذكرهم ، واختلط بكل الناس ، من الأساقفة السمان ، إلى موظفى الحكومة ، إلى أساتذة العلم ، إلى ممثلى المسارح ، إلى العازفين بالأشعار على القيثار

كان فى خلقه نقيضَ « لوفن هوك » أبعد النقض . عاش « لوفن » عزوفاً جلداً صبوراً ، ونحت العدس وحدّق فى الأشياء زُهاء عشرين عاماً قبل أن يسمع به أحد ، أو يُحس وجوده العلماء . أما « أسبالنزانى » ففى سن الخامسة والعشرين ترجم عن القدماء من الشعراء ، وانتقد الترجمة الأيطالية لهوميروس ، وكانت لها فى قلوب الناس منزلة مستقرة وتقدير مكين ، ودرس الرياضات مع ابنة خاله « لورا باسى » الأســتاذة الشهيرة بجامعة ريجيو فبرع فيها ، وعندئذ أخذ يكشط سطح المياه بالحجارة ، لا لهو واللعب كما كان يفعل صبياً ، بل للجد والدراسة ؛ وكتب بحثاً فى الحجارة ، وكشطها لسطح الماء ، وترسّم قسيساً فى الكنيسة الكاثوليكية ، وأخذ يرتزق بما يقيم من القداديس[1] قلنا إنه كان يحتقر فى الخفاء كل سلطة ، ومع ذلك نجده تملّق هذه السلطات نفسها وكسب عطفها ، وعاش هادئاً فى أكنافها يعمل فى مأمن من كل تهويش وإزعاج ، وترسّم قساً حامياً للدين ، مدافعاً دفاع الأعمى عن حوزة اليقين ؛ فاذا به يطلق لنفسه العنان إطلاقاً يسومها على التشكك فى كل شىء ، وعلى رفض التسليم بأى شىء ، إلا وجود الله ، لا إلـه الكنيسة التى صوّرته ، ولكن إلـه عظيم فخم يهيمن على تلك الخلائق أجمعين .

وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره تعيّن أستاذاً بجامعة « ريجيو » فأنصت لدروسه الطلبة فى حماس ظاهر وإعجاب ثائر . وهنا فى تلك الجامعة بدأ تجاربه على تلك الحيوانات الصغيرة الضئيلة العجيبة التى أغراها « لوفن هوك » بالصبر الطويل والحيلة الواسعة على البروز من ذلك الخضمّ الشاسع المظلم الذى احتجبت فيه منذ الخليقة عن عين الانسان ، والتى أوشكت من بعد وفاته أن تنسل راجعة الى ظلمة ذلك المجهول بالترك والاهمال والنسيان

لقد كان من الجائز المقدور أن تُنسى تلك الخلائق الصغيرة ، وإن عطف عليها القدر ، فقد كان من الجائز الميسور أن تحظى بين الناس بنصيب من الذكر بقدر ما تحظى به الأعاجيب يتلاهى الناس بها ويتفاكهون عليها ، ولكن نقاشاً قام بين أرباب الفكر بسببها ضمن لها الحياة كاملة ، لأنه كان نقاشاً عنيفاً خاصم فيه الأصدقاء الأصدقاء ، وودّ فيه العلماء الأســاتذة أن يفلقوا جماجم الأحبار القساوسة . أما موضوع الخصام فهو ذاك :

أيمكن من العدم أن تُخلق الأحياء ، أم لابد لها من آباء ؟ أخلق الله الخلائق فى ستة أيام ، ثم نفض يديه من الخليقة واستوى على العرش يُهيمن ويَسُوس ، أو هو لا يزال يتسلّى من آن لآن بخلق جديد ؟

أما الرأى الشائع فى ذلك الزمان ، فكان أن الشىء قد يخرج من لا شىء ، وأنه لاضرورة للآباء فى كل حالة لتكوّن الأبناء ، وإن فى الأقذار المركومة والأوساخ المهيلة تتولّد المواليد من غير والد . واليك وصفة من تلك الوصفات يضمن لك ذلك العصر أنك تحصل بها على نُوْل عظيم من النحل : خذ ثوراً صغيراً واقتله بضربة على رأسه ، وادفنه واقفاً فى الأرض حتى لا يظهر منه إلا قرناه ، واتركه شهراً ، ثم عد اليه فانشر قرنيه يخرج منهما النحل طائراً فى كثرة وزحام

أحمد زكى

(١) جمع قداس وهو الصلاة على الخبز والخمر

الليث بن ســــعد

محدث مصر وفقيهها ورئيسها

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمـــــة

قال الامام الشافعي : الليث أفقـه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به
وقال الامام أحمد : ليس في أهـل مصر أصح حديثاً من الليث

وقال الامام الشافعي : الليث أتبع للأثر من مالك

وكان ابن وهب[1] يقرأ على الشافعي مسائل الليث فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث ، كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهب للرجل : بل كأن مالكاً كان يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذي لا آلـه إلا هو ما رأينا أفقه من الليث

وقال ابن وهب : لولا مالك والليث لضلّ الناس

وقال الدراوردي : رأيت الليث عنـــد يحيي بن سعيد وربيعة[2] وانهما ليرجرجان له رجرجة ويعظمانه

وقال الذهبي : وكان من بحور العلم له حشم وافر ، وكان نظير مالك

قال ابن عساكر : كان كبار العلماء يعرفون فضله ويشيرون اليه وهو شاب ، وقيل له : أمتع الله بك ، إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك ؟

قال : أوكل ما في صدري في كتبي ؟ لو كتبت ما في صدري ماوسعه هذا المركب !

منزلته عند الخلفاء والولاة

قال الليث : قال لي أبو جعفر : تلي لي مصر ؟

قلت : لا يا أمير المؤمنين ، إني أضعف عن ذلك ، إني رجل من الموالي

فقال : مابك ضعف مني إلا ضعف بدنك ، أتريد قوة أقوى مني ؟ ولـكن ضعفت نيتك في العمل عن ذلك ، فأما إذ أبيت فدلني على رجل

فقلت : عثمان بن الحكم الجذامي ، رجل له صلاح وعشيرة

فبلغ ذلك عثمان فحلف ألاّ يكلمني

فلما أردت أن أودعه قال لي : قد رأيت ما سرني من سداد عقلك فاتق الله في الرعية أمثالك

وقال يعقوب بن داود وزير المهدي : قال لي أمير المؤمنين لما قدم الليث بن سعد بغداد : إلزم هذا الشيخ ، فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه

وقال لؤلؤ خادم الرشيد : جرى بين هرون الرشيد وبين بنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام ، فقال هرون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة . ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا . ثم كتب إلى البلدان ، فاستحضر علماءها اليـه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا ، وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان في آخر المجلس وهو الليث بن سعد . فسأله فقال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم . فقال : يدنيني أمير المؤمنين . فأدناه . فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم . فأمر باحضار مصحف ، فأحضر ، فقال : تصفحه ياأمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ، ففعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » قال : أمْسِكْ يا أمير المؤمنين ، قل : والله . . .

فاشتد ذلك على هرون . فقال : يا أمير المؤمنين الشرط أملك فقال : والله (حتى فرغ اليمين) . قال : قل ، إني أخاف مقام ربي . فقال ذلك

فقال : يا أمير المؤمنين ، فهما جنتان ، وليست بجنّة واحدة !

(قال) فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر ، فقال الرشيد : أحسنت . وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له باقطاع الجيزة ، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرماً

قال الليث : وسألني هرون الرشيد : ماصلاح بلدكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا اجراء النيـل وصلاح أميرها . وإنه

---

(١) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء أحد الأئمة . قال أحمد : ما أصح حديثه ! وقال ابن معين : ثقة . وقال ابن حبان : حفظ على أهل مصر والحجاز حديثهم . رووا أنه حدث بمائة ألف حديث . مات سنة ١٩٩

(٢) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي المدني الفقيه المعروف بربيعة الرأي . وثقه أحمد وابن سعد وابن حبان وأبو حاتم والنسائي مات سنة ١٣٦

من رأس العين يأتى الكدر ، فاذا صفا رأس العين صفت العين

قال : صدقت يا أبا الحارث

وقال السيوطى : كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث ، وكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزله

قال ابن أبي مريم : كان اسماعيل بن اليسع الكندى من خير قضاتنا ، غير أنه كان يذهب مذهب أبي حنيفة فى إبطال الحبس فأبغضوه . فجاء الليث فجلس بين يديه ، فرفع اسماعيل مجلسه ، فقال : إنما جئت إليك مخاصما ، قال : فى ماذا ؟

قال : فى أحباس المسلمين ، قد حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فمن بقى بعد هؤلاء ؟

وقام فكتب إلى المهدى ، فورد الكتاب بعزله . فأتاه الليث فجلس إلى جنبه ، وقال للقارىء : اقرأ كتاب أمير المؤمنين ، فقال له اسماعيل : يا أبا الحارث ، وما كنت تصنع بهذا ؟ والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت ؟

فقال له الليث : والله إنك لعفيف عن أموال الناس

وكان فى كتاب الليث إلى المهدى : انا لم ننكر عليه شيئاً غير أنه أحدث أحكاماً لا نعرفها

ولما أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان ، بنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة

منزلته عند الناس

كان له أربعة مجالس يجلس فيها كل يوم ، فيجلس ليأتيه السلطان فى نوائبه وحوائجه . وكان الليث يغشاه السلطان ، فاذا أنكر من القاضى أمراً أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل ، ويجلس لأصحاب الحديث ، وكان يقول نحوا أصحاب الحوانيت فان قلوبهم متعلقة بأسواقهم ، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه ، ويجلس لحوائج الناس فلا يسأله أحد من الناس حاجة فيرده ، كبرت حاجته أم صغرت . . .

وقال منصور بن عمار : كان الليث إذا تكلم رجل فى المسجد الجامع أخرجه ، فلما دخلت مصر تكلمت فى الجامع ، فاذا رجلان قد دخلا فأخذانى ، فقالا : أجب أبا الحارث . فذهبت وأنا أقول : واسوأتاه أخرج من البلد هكذا . . .

فلما دخلت على الليث سلمت ، فقال : أنت المتكلم فى المسجد؟

قلت : نعم . قال : أعد علىّ ما قلت ، فاعدته ، فرق الشيخ وبكى ، وقال : ما اسمك ؟ قلت : منصور بن عمار . قال : أبو السرى ؟ قلت : نعم . فدفع إلىّ كيساً وقال : صُن هذا الكلام عن أبواب السلاطين ، ولا تمدحن أحداً من المخلوقين ، بعد مدحك لرب العالمين ، ولك علىّ فى كل سنة مثلها

وكتب اليه مالك فى رسالة : « . . وأنت فى أمانتك وفضلك ومنزلتك وحاجة من قبلك اليه . . . الخ »

وقال له يحيى بن سعيد الأنصارى ، وقد رآه يفعل شيئاً من المباحات : لا تفعل ، فانك إمامٌ منظور اليك

غناه وكرمه

قال شعيب بن الليث : كان أبى يستغل فى السنة ما بين عشرين ألف دينار الى خمسة وعشرين ألفاً ، فتأتى عليه السنة وعليه خمسة الآف دينار ديناً

وقال محمد بن رمح[1] : كان دخله ثمانين ألف دينار فى العام وما أوجب الله عليه زكاة قط

وخرج يوماً فقوّموا ثيابه ودابته بثمانية عشر الف درهم الى عشرين ألفاً ؛ وخرج شعبة[2] فقوّموا حماره وسرجه ولجامه بثمانية عشر الى عشرين درهما

وقال أبو رجاء[3] : قفلنا مع الليث من الاسكندرية ، وكان معه ثلاث سفائن : سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها أضيافه

قال عبد الله بن صالح (كاتبه) : صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس ، وكان لا يأكل إلا بلحم ، إلا أن يمرض ، وكان لا يتردد اليه أحد إلا أدخله فى جملة عياله مادام يتردد عليه ويسمع منه ، فاذا أراد الخروج زوده بالبلغة الى وطنه

وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج ، ويعمل فيه الدنانير ، ليحصل لمن أكل كثيراً أكثر من صاحبه !

(١) هو محمد بن رمح بن المهاجر التجيبى بالولاء المصرى الحافظ وثقه أبو داود ، وقال النسائى : ما أخطأ فى حديث قط توفى سنة ٢٤٢

(٢) كان شعبة فقيراً صابراً ، وكان الليث غنياً شاكراً ، وكلاهما على خير . وشعبة هو ابن الحجاج بن الورد العتكى بالولاء الحافظ أحد أئمة الاسلام ، نزيل البصرة ، قال أحمد : كان شعبة أمة وحده ، وقال ابن معين : إمام المتقين . وقال أبو بحر : ما رأيت أعبد لله من شعبة ، وهو أول من تكلم فى رجال الحديث توفى سنة ١٦٠

(٣) هو قتيبة بن سعيد الثقفى بالولاء أحد أئمة الحديث توفى سنة ٢٤٠

وكان يطعم الناس الهرايس بعسل النحل وسمن البقر فى الشتاء ، وفى الصيف باللوز والسكر

وكان يصل مالكاً كل سنة بمائة دينار ، فكتب اليه مرة أن عليّ ديناً ، فبعث اليه بخمسمائة دينار . وكتب اليه مالك مرة إنى أريد أن أدخل ابنتى على زوجها ، فأحب أن تبعث لى بشىء من عصفر

قال ابن وهب : فبعث اليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته ، وباع منه بخمسمائة دينار ، وبقى عنده فضلة

قال أبو صالح (كاتبه) : كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أى احتجب) فقلنا : ليس يشبه هذا صاحبنا ، فسمع مالك كلامنا فأمر بادخالنا عليه ، فقال لنا : من صاحبكم ؟ قلنا : الليث بن سعد

قال : تشبهونى برجل كتبت اليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا ، فأنفذ الينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا ، وبعنا الفضل بألف دينار ؟

ولما حج الليث أهدى اليه مالك طبقاً فيه رطب ، فردّ اليه على الطبق ألف دينار

ولما احترقت دار ابن لهيعة وصله بألف دينار ، ووصل منصور بن عمار القاضى بألف دينار

وكان يجىء الى المسجد كل يوم على فرس ، فيتصدق كلّ صلاة على ثلثمائة مسكين ، ولم يكن يردّ سائلاً :

أتاه مرة سائل فأمر له بدينار ، فأبطأ الغلام به فجاء سائل آخر فجعل يلحّ ، فقال له الأول : اسكت . فسمعه الليث فقال : مالك وله ؟ دعه يرزقه الله ، وأمر له بدينارين

قال منصور بن عمار : كنت عند الليث جالساً فأتته امرأة ومعها قدح ، فقالت : يا أبا الحارث إن زوجى يشتكى وقد نُعت لنا العسل . فقال : اذهبى الى الوكيل فقولى له يعطيك . فجاء الوكيل يسارّه بشىء . فقال له الليث : اذهب فأعطها مطراً ، إنها سألت بقدرها فأعطيناها بقدرنا (قال : والمطر عشرون ومائة رطل)

واشترى قوم من الليث ثمره بمال ، ثم إنهم ندموا فاستقالوه فأقالهم ، ثم استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً وقال :

إنهم كانوا أملوا أملاً فأحببت أن أعوضهم

وقال أسد بن موسى[1] : كان عبد الله بن على يطلب بنى أمية فيقتلهم ، فرحلت الى مصر فدخلتها فى هيئة رثة ، فزرت الليث ، فلما خرجت من منزله تبعنى خادم له فى دهليزه ، وقال : اجلس حتى أخرج اليك ، فجلست ، فلما خرج وأنا وحدى ، دفع الىّ صرة فيها مائة دينار ، وقال : يقول لك مولاى أصلح بهذه النفقة أمرك ، ولم شعثك ، وكان معى فى حُجزتى[1] ألف دينار ، فقلت للخادم : أدخلنى على الشيخ فانى فى غنى عن هذه المائة ، فاستأذن لى عليه ، فأخبرته بنسبى ، واعتذرت اليه عن رد المائة ، وأخبرته عما معى ، فقال : هذه صلة وليست بصدقة ، فقلت : أكره أن أعوّد نفسى هذه العادة ، وأنا فى غنى ، قال : ادفعها الى بعض أصحاب الحديث ممن تراه مستحقا

فلم يزل بى حتى أخذتها ففرقتها فى جماعة

وفاته

توفى الليث يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ١٧٥

قال خالد بن عبد السلام الصدفى : جالست الليث بن سعد ، وشهدت جنازته مع أبى ، فما رأيت جنازة قط بعدها أعظم منها ، ولا أكثر من أهلها ، ورأيت الناس كلهم فى جنازته عليهم الحزن ، يعزّى بعضهم بعضاً ويبكون ، فقلت : يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة !

فقال : يا بنى ، كان عالماً كريما ، حسن العقل ، كثير الأفضال ، يا بنى لا ترى مثله أبداً . . . .

قال بعض أصحابه : ولما دفناه سمعنا صوتاً وهو يقول :

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم قريباً وقُبر

فالتفتنا فلم نر أحداً

وصلى عليه موسى بن عيسى الهاشمى ، ودفن فى القرافة الصغرى ، رضى الله تعالى عنه وبوأه من الجنة غرفاً

* * *

هذا مابقى من هذه السيرة الجليلة ، متفرقاً فى شتى الكتب ، ومختلف الأجزاء ، وقد ضاع سائرها ، كما ضاع هذا التراث العلمى الضخم ، فرحمة الله على أولئك الأجداد الذين بنوا وشادوا ، وألفوا وجمعوا ، وعلموا وعملوا ، ورزقنا التأسى بأعمالهم ، والسير على سننهم . . . وألهمنا إحياء تاريخنا ، ونشر ماضينا ؟

على الطنطاوى

(١) هو أسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان صاحب المسند يقال له أسد السنة ، قال النسائى ثقة لو لم يصنف لكان خيراً له . توفى ٢١٢

(١) الحجزة بالضم معقد الأزار ومن السراويل موضع التكة

١٦ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

ـ وإذن فلنعد الآن إلى حوارنا السابق ـ هل يتعرض ذلك المثال ، أو الجوهر ، الذى نعرّفه فى سياق الكلام ، بأنه كنه الوجود الحقيقى ـ سواء فى ذلك كنه المساواة ، أو الجمال ، أو أى شئ آخر ـ أقول هل تتعرض هذه الجواهر ، على مر الزمن ، إلى شئ من التغير ؟ أم أن كلاًّ منها يبقى هو ما هو دائماً ، له نفس ماله من صور توجد بنفسها ، لا تتغير ، ولا تقبل التحول بتاتاً ، كيفما كان ، أو فى أى وقت كان ؟

فأجاب سيبيس ـ إنها لابد أن تكون دائماً كما هى ياسقراط ،

ـ وماذا أنت قائل فى تعدد الجميل ـ سواء أكان أناساً ، أم لباساً ، أم جياداً ، أم أى شئ آخر يمكن أن يسمى متساوياً أو جميلاً ـ أهى كلها لا تخضع للتغير ، وتبقى كما هى دائماً ، أم أنها نقيض ذلك تماماً ؟ أليس الأولى أن توصف بأنها متغيرة فى الأغلب ، وأنها لاتكاد تبقى أبداً كما هى ، سواء مع أنفسها ، أو بعضها مع بعض ؟

فأجاب سيبيس : إنها الأخيرة . إنها دائماً فى حالة من التغير

ـ وأنت تستطيع أن تلمسها ، وأن تراها ، وأن تدركها بالحواس ، فأما الأشياء الثابتة ، فلا يمكنك إدراكها إلا بالعقل ـ إنها تخفى على الأبصار فلا تُرى

فقال هذا جد صحيح

فأضاف ـ حسناً ، لنفرض إذن أن ثمت ضربين من الوجود : وجوداً مرئياً ، ووجوداً خفياً

ـ لنفرضهما

والمرئى هو المتغير ، والخفى هو الثابت

ـ يمكن فرض ذلك أيضاً

ـ أليس الجسد ، فضلاً عن ذلك ، جزءاً منا ، وما يبقى هو الروح ؟

ـ ليس فى ذلك شك

ـ ترى إلى أى نوع من هذين يكون الجسد والجلد أشبه ؟

ـ ظاهر أنهما أشبه بالمرئى : إن أحداً لا يشك فى ذلك

ـ وهل الروح مرئية أم خفية ؟

ـ لم يرها إنسان ياسقراط

ـ وهل نقصد « بالمرئى » و « الخفى » ، ما تراه عين الانسان ومالا تراه ؟

ـ نعم ، بالنسبة إلى عين الأنسان

ـ وماذا تقول عن الروح ؟ أهى مرئية أم خفية ؟

ـ إنها لا تُرى

ـ هى خفية إذن ؟

ـ نعم

وإذن فالروح أشبه بالخفىّ ، والجسد أشبه بالمرئىّ ؟

ـ إن ذلك مؤكد جداً ياسقراط

ـ ألم نكن نزعم منذ عهد بعيد ، أن الروح حين تتخذ من الجسد أداة للأدراك ، أعني حين تستخدم حاسة الأبصار ، وحاسة السمع ، أو غيرها من الحواس (لأن معنى الأدراك خلال الجسد ، هو الأدراك بواسطة الحواس) ـ ألم نكن نزعم أن الجسد بذلك يجر الروح أيضاً الى منطقة التغيّر ، وأنها تضل وترتبك ؟ فان الدنيا عندئذ تضرب حولها نسيجاً ، فتكون الروح عند خضوعها لتأثير الحواس كمن أثملته الخمر ؟

ـ جد صحيح

ـ ولكنها إذا ما ثابت الى نفسها ، فانها تفكر ، وبعندئذ تدخل عالم النقاء ، والأبدية ، والخلود ، والثبات . فهؤلاء عشيرتها وهى تعيش معها أبداً ، إذا ما خلت إلى نفسها دون أن يمطلها مُعطل ، أو يحول دونها حائل ، وعندئذ لا تعود تسلك سبلها الخاطئة ؛ فانها إذا خالطت ما هو ثابت ، كانت هى كذلك ثابتة ، وتسمى هذه الحالة التى تكون فيها الروح بالحكمة

أجاب : هذا صحيح ، لحق ماقلت ياسقراط

ـ وبأى نوع ترى الروح أشد شبهاً وقربى ؟ آستنتاجاً من هذا التدليل ومن سابقه ؟

ـ إنى أظن يا سقراط أن كل من يتتبع هذا التدليل ، يعتقد

أن الروح ستكون قريبة الشبه بالثابت قرباً لا نهاية له — ولن ينكر هذا حتى أشد الناس غباء

– والجسم أقرب شبهاً بالمتغيّر ؟

– نعم

– انظر بعد ذلك الى الأمر مرة أخرى مستضيئاً بهذا : حينما تتحد الروح مع الجسد ، تأمر الطبيعةُ الروحَ أن تحكم وأن تسيطر ، والجسدَ أن يطيع وأن يعمل ، فأى هذين العملين أدنى الى الالٓهى ؟ وأيهما أقرب الى الفانى ؟ أليس يبدو لك الالٓهى أنه ما يأمر وما يحكم بطبيعته ، وأن الفانى هو الخادم الخاضع ؟

– حقاً

– وأيهما تشبه الروح ؟

إن الروح تشبه الالٓهى ، أما الجسد فيشبه الفانى – ليس الى الشك فى ذلك سبيل يا سقراط

– إذن فانظر يا سيبيس : أليست هذه هى خلاصة الأمر كله ؟ إن الروح على أشد ما يكون الشبه بالالٓهى ، وبالخالد ، وبالمعقول ، وبذى الصورة الواحدة ، وبغير المتحلل ، وبغير المتحول ، وإن الجسد على أشد ما يكون الشبه بالانسانى ، وبالفانى ، وبغير المعقول ، وبذى الصور المتعددة ، وبالمتحلل ، وبالمتحول ؟ هل من سبيل الى إنكار ذلك ، أى عزيزى سيبيس ؟

لا ولا ريب

– ولكن إن صح هذا ، أفلا يكون الجسد عرضة للتحلل السريع ؟ ألا تكون الروح غير قابلة للتحلل ، فى أغلب الحالات ، بل فيها جميعاً ؟

– يقيناً

– وهل تلاحظ فوق هذا ، أن الجسد بعد موت الانسان ، لا يتحلل أو يتفكك دفعة واحدة ، بل قد يبقى أمداً طويلاً ، إذا كان قوى البنية عند الموت ، ووقع الموت فى فصل ملائم من فصول السنة ، مع أن الجسد هو الجزء المرئى من الانسان ، وله مادة تراها العين ، تسمى جثة ، ستنتهى بطبيعتها إلى التحلل ، فتتفرق أجزاؤها وتتبدد ؟ لأن تقلص الجسد وتحنيطه ، كما جرت بذلك العادة فى مصر ، يعملان فى أغلب الأحيان على حفظه أبداً لا يبيد ، وحتى إذا أصابه الفساد ، فان بعض أجزائه تظل باقية ، كالعظام وبعض الأعصاب التى تستعصى على التحلل بطبيعتها . هل تسلّم بهذا ؟

– نعم

– وهل يجوز لنا أن نفرض أن الروح الخفية ، عند انتقالها إلى عالم الأموات الحقيقى ، وهو مثلها فى خفائها ، ونقائها ، ونبلها ، وأنها إذ تكون فى طريقها إلى الالٓه الخير الحكيم ، الذى توشك روحى أن تنتقل اليه ، إن شاء الله ، بعد حين – أقول : هل يصح الفرض أن الروح ، إن كانت هذه طبيعتها وذاك أصلها ، تتبدد وتفنى عند فراق الجسد ، كما تقول جمهرة الناس ؟ يستحيل أن يكون ذلك ، أى عزيزىّ سمياس وسيبيس ، وأولى أن تكون الحقيقة أن الروح ، وهى نقية ، لا تجر فى ذيلها عند انتقالها أية صبغة جسدية ، مادامت لم تتصل قط بالجسد اختياراً ، بل إنها لتتجنبه دائماً ، وما دامت قد انحصرت فى نفسها (فقد كان مثل هذا التجريد موضوع دراستها فى الحياة) . وماذا يعنى هذا إلا أن الروح قد كانت تابعة مخلصة للفلسفة ، وأنها قد مرنت على كيف تموت بغير عناء ؟ أفليست الفلسفة هى مراننا على الموت ؟

– يقيناً

أقول إن تلك الروح فى خفائها ، تنتقل إلى العالم الخفى – إلى الالٓهى ، والخالد ، والعاقل ؛ فاذا ما بلغته ، رفلت فى نعيم ، وتخلصت من أوزار الناس ، وحمقهم ، ومن مخاوفهم وعواطفهم الوحشية ، ومن النقائص البشرية جميعاً ، ورافقت الآلهة إلى الأبد ، كما يروى عن العالمين بالسر . أليس ذلك صحيحاً ياسيبيس ؟

– فقال سيبيس : نعم ، وليس إلى الشك فيه من سبيل

(يتبع) زكى نجيب محمود

١٤ – بين القاهرة وطوس

من بغداد إلى الاسكندرية

للدكتور عبد الوهاب عزام

أقمنا ببغداد أربعة أيام ، فأحدثنا العهد ببعض مشاهدها ، وزرنا مرقد الملك الشهيد فيصل . رأينا فى العراء على مقربة من دار البرلمان مقصورة من الخشب ترتفع عن الأرض درجات ، وعلى بابها جندى شاهر السلاح . ففتح لنا الباب إلى ضريح مغطى بالورد والزهر : هذا بقية الجهاد من النفس الطامحة ، هذا ميراث الخلود من العزائم المريرة ، هنا صفحة من مجد الاسلام والعرب ، هنا حلقة يصلها النسب والمجد والتاريخ بسيد المرسلين وخاتم النبيين . غاية تتقطع دونها الأعناق ، ويعيا بمرامها كل سباق . أترى هذا المصحف على حافة الضريح ؟ هذا كتاب الله يشهد للسلف بما قدّم ، ويدعو الخلف الى أن يمضى قدماً على سنة الآباء وسنن المجد وهدى الاسلام . فيا بنى العرب والاسلام احذروا غضب الله ، وسخط الآباء ، ولعنة التاريخ ، وسيروا بالراية إلى الغاية ، وتبوأوا مكانكم فى جبهة الخطوب وصدر الأجيال

فانا أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

قرأنا صحائف المجد والعبر . ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا نقول : رحم الله فيصلاً !

وفى اليوم الثانى شرُفنا بالمثول بين يدى جلالة الملك الشاب غازى بن فيصل ! اقتربنا من الحجرة الملكية فرأينا جلالته واقفاً ، فلما ولجنا الباب تقدم الينا فحيانا تحية العربى الكريم ضيفانه ، وتلقانا كما يتلقى الأخ العظيم إخوانه . وجلسنا فسألنا كيف صحة جلالة مصر ، وسألنا عما رأينا فى سفرنا وما لقينا فى حلنا وترحالنا ، وكيف رأينا تقدم العراق بعد زورتنا الأولى ، ثم تحدث أحاديث ملؤها الأمل والطموح فى مستقبل العراق والعرب والاسلام . قلنا وإنا لندعو الله أن ييسر للملك الهاشمى العظيم السير على سنن آبائه ، ويرعاه قرة عين للعرب والمسلمين . ثم خرجنا فرحين مغتبطين ، فقلنا قد رأينا فى فيصل صفحات من مجد الأمس ! وهذه صفحات من مجد الغد

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

فصدّق الله آمالنا ، ومهّد لنا طريقنا ، ويسر لنا غايتنا .

وزرنا مسجد الامام أبى حنيفة والمدرسة الأعظمية ودار الكتب . وزارنا فى الفندق كثير من إخواننا البغداديين ، وتنافسوا فى دعوتنا إلى ضيافتهم ، ولكن ضاق الوقت عن اجابة الدعوات ، إلا دعوتين سبقتا قبل سفرنا إلى طهران من الأستاذ الفاضل أبى خلدون ساطع بك الحصرى مدير كلية الحقوق ، والأديب الهمام رفائيل بطى مدير جريدة البلاد ، فذهبنا إلى حفلتين نعمنا فيهما بلقاء جمع من زعماء العراق وعلمائه وأدبائه ، وسعدنا بأحاديث فى الاخوة والمودة ، والسياسة والعلم والأدب

وفى اليوم الأخير كانت حفلة الوداع فى دار المفوضية المصرية ، إذ دعا الأستاذ حافظ بك عامر القائم بأعمال المفوضية جمعاً من أعيان بغداد ، ومن المستشرقين الذين رافقونا فى حفلات الفردوسى ، وسفير إيران ببغداد وغيرهم إلى مأدبة شاى ، ولم تكن هذه أولى حفاوة حافظ بك والأخ حسين افندى منصور سكرتير المفوضية

وبرحنا بغداد بكرة يوم الاثنين فى سيارة جديدة من سيارات شركة (نيرن) ذات عشر عجلات طولها ٢٥ متراً ، وهى نمط جديد مركب من جزأين : القاطرة والعربة . وقد أريدّ بفصل المقدم من سائر العربة إضعاف الارتجاج ، فالسيارة تسير رهواً فى الطريق غير المبدة . وقفنا قليلاً فى الرمادى ، فرأينا سيارة كبيرة تقل نفراً من الانكليز ، فيهم أطفال ونساء ، وقد كتب عليها ما يدل على أنها سائرة من الهند إلى لندرة ، سألت بعضهم متى فصلتم من الهند ؟ قال : منذ شهر . قلت : ومتى تبلغون لندرة ؟ قال : بعد شهر ونصف ، لأننا سنتلبث فى القسطنطينية وبعض البلاد . فهانت علينا الشقة بين طوس والقاهرة ، وأكبرنا هذه العزائم السيارة

بعيد مناط الهم فالغرب مشرق إذا ما رمى عينيه والشرق مغرب

وبلغنا الرطبة بعد الغروب فلبثنا ساعتين ، جلسنا فى فندق هناك نستمع إلى الغناء المصرى ، ونأكل ما تيسر من الزاد . ثم مشينا فى أطراف الصحراء فرأينا مجرى وادى حوران الذى يسيل من حوران إلى وادى الفرات ، ولم يكن به يومئذ ماء ، ورأينا هناك آبارا يستقى منها الأعراب الضاربون فى تلك النواحى

وقد جاء الينا أطفال الأعراب ، فسألهم أحد الرفاق عن أسمائهم فلم يجيبوا ، فقلت إن ابن البادية يتحرز من ذكر اسمه واسم قبيلته حتى يأنس ، فلما استأنسناهم بالحديث والعطاء صرحوا بالأسماء

طلعت الشمس ونحن فى أرباض دمشق ، فدخلناها فى نضرة الصباح ، وأشعة الشمس تموج على ذوائب الغوطة الفيحاء ، وما دخلت دمشق قط إلا خفق قلبي لها سروراً وحباً

أوينا إلى فندق أميّة يجيبه الينا هذا الأسم العربى ، ولبثنا به يومين ، ووجدنا خدام المائدة هناك من النوبيين فرحبوا بنا وبالغوا فى اكرامنا

وهنا لطيفة أضنّ بها على التّرك : جلست أنا ورفيق الأستاذ العبادى للأفطار ، فلما قدمت الينا الوان الطعام طاف بنا طائف من الشعر ، فقال الأستاذ :

وقوم فى أميـــة نازلينا من العسل المصفى يشربونا

فقلت :

ولو علموا مكانتهم لكانوا بصحن بنى أمية ينزلونا

قال ما صحن بني أمية ؟ قلت صحن الجامع الأموى . قال إن النزول به شرف . قلت هذا أردت . والله أعلم بذات الصدور

بادرنا بعد أن استرحنا إلى زيارة أستاذنا العلامة محمد كردعلى بك كما فعلنا حينما وردنا المدينة فى طريقنا إلى طهران ، ومن فاته مجلس الأستاذ كردعلى فى داره المعمورة فقد فاته خير كثير . وكنا نعمنا المرة الأولى بليلة غوطية قمراء سمرنا بها مع الأستاذ والأمير مصطفى الشهابى والأستاذ خليل مردم وهم كما قال الحريرى

« فى رفقة غـذوا بلبان البيان ، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان ، ما فيهم إلا من يحفظ عنه ولا يتحفظ منـه ، ويميل الرفيق اليه ولا يميل عنه »

ويوم الأربعاء زرنا الجامعة السورية ، فاذا كلية الآداب قد ألغيت . ولقينا الأستاذ مدير الجامعة ، فطاف بنا فى حجرات الكيمياء والطب ، ثم دعانا الى غرفته فتحدثنا فى الاصطلاحات العلمية وتوحيدها فى البـــلاد العربية ، ثم خرجنا شاكرين . وذهبنا إلى المتحف العربى لنرى الأمير جعفرا الجزائرى فاذا المتحف مغلق ، وإذا المكتبة التى أمامه مغلقة

وهنا أقول إن دار المتحف العربى هى دار المدرسة العادلية لا دار الحديث الأشرفية ، كما ذكرت خطأ فى حديثى عن الشيخ الخالدى ، وأنا أعترف بأن الغلط كان مني لا من الشيخ ، وأنه نبهني اليه حينما قرأ المقال وهو بمصر . (وهذا لا يقل من شكرى للأديب برهان الدين محمد الداغستانى الذى نبه الى هذا الغلط فى مقال بمجلة الرسالة)

وفى المساء ذهبنا الى الصالحية فزرنا قبر الشيخ عبـد الغنى النابلسي ولم نكن زرناه ، فوقفت بنا السيارة على حارة هناك فترجلنا ومشينا بجانب بناء قديم مهجور فقيل : هذه المدرسة العمرية التى بناها أبو عمر بن قدامة . وفى هذا الحىّ مدارس كثيرة كانت مباءة العلم والعلماء فى العصور الخالية . وتقدمنا قليلاً ثم ملنا ذات اليسار ، فهبطنا مسجداً صغيراً مشرفاً على دمشق . ثم ولجنا باباً إلى اليمين فاذا مصلى واسع ، فلما اتجهنا شطر القبلة رأينا فى الجدار الذى إلى اليسار مقصورتين عليهما شبابيك الحديد أحداهما مرقد الشيخ الصوفى العالم المتفنّن عبد الغني النابلسى ، والأخرى قبر أحد أبنائه فيما أذكر

وقد رأيت على باب المصلى الذى فيه الضريح هذين البيتين :

زان سورية الوزير نظيف بنظام يفوق عقداً نظيما
لمقام الولى عبـد الغنى مذ شاد أرخت « نال أجراً عظيما »

ومعنى ذلك أن والى سورية نظيف باشا عمر هـذا المكان سنة ١٣٠٦ ثم ذهبنا إلى دار العالم الفاضل الأمير مصطفى الشهابى إجابة لدعوته ، وهى فى أعلى الصالحية تشرف على دمشق كلها . فتعشينا وسمرنا مع جماعة من الفضلاء ، ثم هبطنا بعد هدأة من الليل فمشينا إلى الفندق ، وسار معنا الاخوان مودعين فختمت إقامتنا بدمشق على أحسن ذكرى

وأصبحنا نتأهب للمسير إلى بيروت فبلغناها ظهراً . وذهبنا إلى دار القنصلية المصرية فلقينا حضرة القنصل صادق بك أبو خضره فأبى إلا أن يدعونا للغداء ، ثم ودعناه بعد الغداء شاكرين فسرنا فى أرجاء المدينة ، فلما أرست الباخرة الرومانية « شارل الأول » وضعنا أمتعتنا بها ثم نزلنا فجلنا جولة فى المدينة ورجعنا اليها والساعة إحدى عشرة ، وفى منتصف الليل سارت الباخرة ، فلما أصبحنا بها رأينا أسباط بني اسرائيل مزدحمين فى أرجائها ، وقد راجت سوق الملابس بينهم ، هذا يعرض وهذا يساوم ، وهذا يشترى وهذا يأبى . فقلنا لله درّ القوم !

وقفت الباخرة على حيفا صبحاً ، وقد صارت حيفا ميناء

كبيراً منذ العام الماضى ، فنزلنا إلى المدينة وصـعدنا فى جبل الكرمل وهو جبل عال مزدان بالدور والأشـجار مشرف على البحر . ومررنا بقبرالباب صاحب الدعوة البابية ، وقبر عبد البهاء عباس أفندى زعيم البهائيين السابق . وهما فى بناء جميل تحيط به حديقة منضدة ينحدر الجبل عنها طبقة بعد أخرى حتى يفضى إلى شارع واسع يستقيم من سفح الجبل إلى البحر

وسارت السفينة بالعشى فما زالت فى بحر رهو حتى أقبلت على الأسكندرية المحبوبة قبيل الظهر يوم السبت ثالث نوفبر . خفقت قلوبنا فرحاً بالأوبة إلى الوطن ، وقذيت عيوننا بالمرائى الأجنبية المتزاحمة فى الثغر ، وزادها قذى منظر زورق الشرطة تعلوه راية كتب عليها من الجانبين Police كأن البلد لا يعرف اللغة العربية ! وبينما تكفهر حولنا هذه المناظر المخزية وقع بصرى على كلة « زمزم » الكلمة العربية الوحيدة فى مئات الأسماء المحيطة بنا ، وهـذه زمزم إحدى بواخر بنك مصر ! هذا كوكب يلوح فى هذا الظلام الدامس! هذا برق من الرجاء يشق هـذا الليل اليائس ! هذه فاتحة المستقبل الوضاء ! فاصبرى أيتها النفس فان مع العسر يسرا

خاتمة

لم يتيسر لنا المقام فى إيران حتى نعرف من أحوالها ودخائلها وسير العلم والأدب بها ، وحتى نستقصى آثارها ومشاهدها ، وإنما هو السفر العجلان الذى لا يقف ببلد إلا ريثما يسير عنه . فهذه المقالات جهد النظرة العاجلة ، ومبلغ الأيام القليلة التى قضيناها طائرين من مدينة إلى أخرى ، ومقدار ما وعت الذاكرة دون الاستعانة بالمذكرات ، وهو كما رأى القارئ كلام قريب الغور ، قليل الجدوى ، ولكنه لا يخلو من فائدة

وبعد ، فقد سرنا من القاهرة إلى طوس فما أحسسنا أنا اغتربنا ، بل رأينا أنفسنا بين وجوه معروفة ، وسنن مألوفة ، وتاريخ معلوم ، وفى مشاهد حدثتنا عنها كتبنا ، وعهدها تاريخنا ونشأ فيها علماؤنا ، فالعالم الاسلامى ، على اختلاف الأمم ، أمة واحدة ألفتها مئات السنين على معنى واحد ، وأسلوب واحد ، وأورثها التاريخ حضارة واحدة ، وآداباً متقاربة ، وهـذا ذخر لعمر الحق جدير أن يصان على رغم الزمان ، وائتلاف ينبغى أن يجنب الاختلاف ، وتقارب هو أسعد ما تحظى به الأمم فى هذه العصور القلقة المضطربة . فقل للذين يريدون أن يقطعوا الأوصال بما يثيرون من الجدال ، وقل للذين يحقرون ماضينا ، ويزدرون تاريخنا ، ويحاولون أن يهدموا كل قديم ليشيدوا كل حديث ، وقل للذين يصدون عن الشرق ليولوا وجوههم شطر الغرب : ألا ساء ما تعملون ! لقد أعماكم التقليد عن الحق ، وذهب بكم الضلال أبعد مذهب . فان تماديتم فى الغواية فستندمون حين لا ينفع الندم والسلام

عبد الوهاب عزام

الله

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

أنا في كوني الصغير صلاة
وسعت كونك العظيم الجود

* * *

يا إلٰهي قلبي الرفيقُ تهدّ ... مُذْ صداكَ الحبيبُ فيه تردّدْ
يا إلٰهي طيفُ العفاء يُناجيـ ... ـكَ ، ونجواه أنّةٌ تتصعّدْ
غاب لمّا دعاكَ عن وَهدَة الإثـ ... ـم وعن طينةٍ منَ الإثم أوهَدْ
يا إلٰهي أنا الفناء أناديـ ... ـكَ، وأنتَ البقاء تُرجى وتُقصَدْ
ضعتُ عنّي لمّا دعوتُكَ في السّـ ... ـرّ وظلّت رُوحي المَشوقةُ تُرعَدْ
أيُّ ألطافكَ العِذابِ تجلّى ... أيُّ آلائكَ العظامِ تعدّدْ
حفَلَ القلبُ بالتُّقى فتصفّى ... وجلاهُ الهدى فصلّى ووَحّدْ
وَهِي بهجةٌ وَحيّ لحنٌ ... وابتهالي الغالي نشيدٌ مُقصّدْ
فَنيتْ مُهجتي بحبّكَ يارَبّ (م) وغلغلتُ في الفناء لأشهدْ
أجدُ الفَرْحةَ العظيمةَ في الذّ ... لّ لربّي ، وفي انكساري سُؤددْ
شفّني الحبُّ فاستَحلتُ نداء ... ومنَ الحبّ أن تذوبَ وتَشهدْ
وأنا العبدُ هائمٌ وجداً بمولا ... هُ ، وإنْ أفْنَ في المحبة أوجدْ

* * *

يا إلٰهي رُوحي توَلّهُ حيرى ... لا تعي أمرَها وتُغرى بمحمدْ
طيّ جفنيّ عالَمٌ لكَ حلوٌ ... وبنفسي قصيدةٌ لكَ تُنشَدْ
أترعتْها ملائكُ الحبّ بالسّحـ ... ـرِ فغنّى بها الوجودُ وغرّدْ
ما جفتْ مُقلتايَ هذا الكرى الهـا ... نئَ كفرًا إلا ووجهُكَ أسعدْ
أنا في هيكلي اللّهيفِ دعاء ... فاضَ من سِرّكَ اللطيفِ المُمجّدْ
ساهدُ الجفنِ خاشعُ القلبِ باكٍ ... ذاهلُ الرُّوحِ مُستهامٌ مُشرّدْ
أرقبُ الفجرَ في غلائلهِ البيـ ... ـضِ وقد شفَّ عن غُبارٍ مُبدّدْ
جدوَلٌ رائعٌ يرفُّ منَ النّو ... رِ وأمْواهُهُ تكادُ تورّدْ
غرَقٌ يغمُرُ القلوبَ ابتهالاً ... وسَناً يملأُ النواظرَ عسجدْ
وأطلّتْ ذُكاءُ في الموكبِ السّا ... حرِ دُنيا من الرؤى تتوقّدْ
أنا آمنتُ يا إلٰهي بنُعما ... كَ يقيناً وما خُلقتُ لأجحدْ

* * *

رُبَّ طاوٍ على الضّغينةِ صدراً ... عاشَ في زَحمةِ البِلَى يتمرّدْ
نَسِيَ الخالقَ اللطيفَ وَجدْوا ... هُ وعافَ التُّقى وتاهَ وعرْبدْ
لا يُبالي أنامَ في حُفَرِ الدّيـ ... ـدانِ أمْ بالدُّجى الرهيبِ توسّدْ
يوْمُهُ آثمٌ وأمسِ مُجونٌ ... والغدُ المُجتلى حلمٌ مُنضّدْ
لا يُحسُّ الحياةَ إلاّ ضلالاً ... مَنْ يجدها هُدًى يُندمْ ويُنقدْ
والإلٰهُ الرحيمُ يُوسعهُ الخيْـ ... ـرَ فلا يَرْعوي ولا هو يَرْشدْ

* * *

يا إلٰهي جَداكَ غمْرٌ وإحسا ... نُكَ فيضٌ على المدى ليس ينفَدْ
تنطوي الأرضُ في غياهبِها السُّحْـ ... ـمِ وينهارُ كلُّ بُرجٍ مُشيّدْ
ويُدوّي الوجودُ بالعابِ والهو ... نِ وينسى أخو الهوى من تودّدْ
يَمّحي الرِّفقُ من قلوبِ المحبّيـ ... ـنَ ولا يَرحمُ السعيدُ المُنكّدْ
وتموجُ الأكوانُ بالبُغضِ والشّـ ... ـرِّ وتغلي فيها نفوسٌ توعّدْ
وَنداكَ العميمُ ينهلّ سكّا ... باً وآلاؤهُ تظلُّ تجدّدْ

* * *

عزّتِ البيدُ ، إنّها موطنُ البأ ... سِ وتجلى عيشِ النّعيمِ المُمهّدْ
تتثنّى بكلّ أروعَ سبّا ... قٍ وتزهى بكلّ أبلجَ أصيدْ
وُلدَ الحبُّ في رُباها نقيًّا ... وعلى ساحِها العلاءُ توطّدْ
يا إلٰهي حلّيتَ بالنورِ مغنا ... ها وأطلعتَ منْ حِماها مُحمدْ
أعشبَ القفرُ حينَ لاحَ مُحيّا ... هُ وسالَ النُّضارُ منْ كلّ فدفدْ
واستنارتْ بهِ القوافلُ في الليـ ... ـلِ وغنّى الدليلُ أُنساً وزغردْ
وسرتْ نفحةُ النبيّ بنِ الصّحْـ ... ـراءِ أندى منَ الرّبيعِ وأجودْ
طفحَ القفرُ بالشّذا وانتشى الكوْ ... نُ فلمْ يبقَ خافقٌ لم يُهدهدْ

* * *

يا نبيَّ الهدى سبيلُكَ رُشدٌ ... بيّنٌ نهجُهُ وشرعُكَ سرمدْ
عمّتِ الأرضَ والسمواتِ نُعما ... كَ فيا فوزَ منْ جنى وتزوّدْ
لستُ أنسى صحابةً لكَ غرًّا (م) نًا زها الحقُّ باسمهمْ وتأيّدْ
علّموا الناسَ كيفَ تُفتتحُ الأرْ ... ضُ ويَنقادُ للكريمِ المُسوّدْ
ملأوا الكونَ رحمةً وسلاماً ... وسماحاً صفا وحُبًّا تجرّدْ

عصبة الأمم

بين الحبشة وإيطاليا

للأستاذ محمود غنيم

ويحي على محكمة السلام   محكمة لكن بلا أحكام
لاهو لا للنقض والابرام   سابحة فى عالم الأحلام
والسيف يبرى الهام كالأقلام   ألم تر العصبة فى المنام
تحرّش الذئاب بالأغنام؟   «روما» تهز صفحة الحسام
وشفتا «جنيف» فى ابتسام!   إن رضى القاضى عن الإجرام
فانه أولى بالاتهام   ويل لحام من أخيه سام!
يا سودُ ما أنتم من الأنام

***

ياجيرة الهضاب والآكام   وساكنى الذّروة من شِمام
لا فَصْل إلا بالحديد الدامى   فالحق فى أسنّة السهام
لستم تنالون بالاحتكام   ما ناله «منليك»(١) بالصمصام

***

هم يخدعون الناس بالأوهام   متى استطاعوا الفصل فى خصام
أيومَ فتك الترك بالأروام   أم يوم رُوّعت بلاد الشام
أم يوم ديس الصين بالأقدام   وهَددت «طوكيو» بالانقسام
فآثروا الصمت على الكلام!   ماللضعيف فى الورى من حام
لولا نُيوب الأسدِ الضرغام   لكان من فصيلة النعام
ولاستبيحت حرمة الآجام

كوم حماده   محمود غنيم

(١) منليك الثانى ملك الحبشة الذى انتزع استقلال بلاده من أيدى الطليان بالسيف.

فإذا العيشُ من شذا الزّهر أزكى   نفَساً عابقاً وأحلى وأرْغَدْ
ومشى دينُكَ الحنيفُ على الغبـ   ـراء حتى أغارَ فيها وأنجَدْ
فرمى بالكتائب الغُرّ كسرى   وهِرقلاً وكلّ مَلْكٍ مُقلّد
وجرى الفتح زاهرَ اليُمْنِ وضّا   ءً كما رفّ فى السموات فرقد
قبسٌ من هداية الحقّ ضافٍ   ويدٌ من رعاية الله تمتدْ
وازدهى الكون فرحةً وحبُوراً   حينَ طافتْ به رسالةُ أحمد
يا إلهى عنَا لوجهك وجهى   وفؤادى من طول حمدك معبَد
أنا فى كونى الصغير صلاةٌ   وسعتْ كونَك العظيمَ المجوّدْ

دمشق   أنور العطار

الضحية

للأستاذ محمد خورشيد

يازمانَ الأسى طرحتُ سلاحى   لم تعدْ بى بقيّةٌ للكفاح
صرعتنى الهمومُ حتى كأنى   لم أدَعْ فى دنانها إثرَ راحِ
كلما رُضتها انبرتْ لى همومٌ   صلبةُ العودِ عاية فى الجماح
أخدعُ الناس بالبشاشةِ والخنّاق فى الجنب ممعنٌ فى النّواح
حُلكةُ النفسِ لم ترِمْنى ولما   يطلق الحظُّ من حِماها سراحى
فسأنى هذى الحياةَ وما فى   ظُلمةِ الرمسِ غيرُ نور صباحى

***

سئمتْ روحى الإسارَ فودّتْ   لو غدتْ حرّةً مع الأرواح
ما أراها غداة يدركنى الأضـ   ـحى سوى مستريحةٍ كالأضاحى
فيطيب النسيم منها أريجاً   مثلما طاب بالشذا الفوّاح
وتُطيف ابتسامتى بثغور الزّ   هرِ الغضّ وردِهِ والأقاحى
ويُغنّى الهَزار شعرى شجياً   فاسمعوا فى الربيع منه صُداحى

***

لم يَعدْ لى غير الشغافِ ضِمادٌ   منذ أعيا الأُساةَ لَمُّ جراحى
ما عسى يصنع الطبيبُ إذا ما   عاد صبّاً مثلى مَهيض الجناح
هاله أن رأى شبابىَ يذوِى   فتولّى متمتما غير صاح
فى غدٍ تُغمِضُ الذُّبالةُ جفنيـ   ـها ويسرى الظلامُ فى المصباح

القدس   محمد خورشيد

منظر لا متاع

للأستاذ فخرى أبو السعود

لا تبتغِ الدنيا متاعاً يُشترَى   بل فابغِها ما عِشتَ فيها منظرا
وابغِ الجمالَ بها إذا ما رُمتَه   شكلاً بها للناظرين مصوّرا
لاتُلفِيَنّكَ إن عَدَتْك لُبانةٌ   منها على آثارها متحسرا
أنت المصيبُ لُبابَها وخيارَها   ما دمتَ فيها المبصِرَ المتبصّرا
والمجد كلُّ المجد فيما نلته   متفكّراً لا جامعاً مُتكثّرا
إنى أرى حُسنَ الطبيعة دائماً   فى كل يومٍ زائداً متكررا
ورأيت ما ملكتْ يمينٌ عالةً   للمالك العانى وعبئاً موقِرا
الكون مسرًى للعيون ومسرحٌ   لفؤاد مَن راد الحياة مفكرا

فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية

٨ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأستاذ خليل هنداوي

آثرنا ترجمة بعض مقاطيع لشوبنهاور ونيتشه، لأن أسلوبهما الفلسفي تغلب عليه الصبغة الأدبية والشعرية في كثير من خطراتهما ونظراتهما (خ . ه)

صفحة من آثار شوبنهاور

« كيف تنعكس صورة العالم الخارجي في عقولنا »

مقطوعة صغيرة وضعها الفيلسوف على لسان جني يميط لنا اللثام عن سر الأشياء

أمامي شيئان، شيئان ثقيلان منتظمان، ما أجمل النظر إليهما! أحدهما إناء من حجر ثمين مُحلى بعروتين من ذهب، والآخر جسد تام الخلق والمفاصل، هو جسد إنسان، فبعد أن تأملت ظاهرهما كثيراً استأذنت من الجني أن يسمح لي بتأمل باطنهما، فأذن لي فدخلت في الإناء، فلا أدري أية ميول قائمة تتمشى في أجزائه تحت اسم الالتحام والالتئام

أما الشيء الثاني ويا للغرابة! أنى لي أن أحدث عما رأيت، فأساطير الجن يمسي كل ما فيها أخاً للحقيقة، ففي ذروته العليا ألفيتُ ما يُدعى «رأساً» مظهره الخارجي كمثل كل مظهر، وهو كغيره من الأشياء يسبح في الفضاء ثقيلاً. ماذا وجدت؟ وجدت الكون نفسه مع سعة الفضاء. وجدته يحتوي على كل شيء، فيه سعة الزمان، وفيه يتحرك كل شيء، وخلتُني مع هذا التحول العجيب للأشـــياء في الزمان والفضاء، إنني في ذهاب وإياب! . . . .

— ٢ —

مقطوعة من كتابه « العالم هو إرادة وتمثيل »

قد لا يدخل في دائرة الصدق قولنا: إن الحياة ظاهرها وباطنها صماء مظلمة؛ هكذا تجري حياة أكثر الناس، طافحة بالقلق والميول النافرة، تمشي في صدر الإنسان حائرة مترجرجة، وصاحبها مستسلم للأحلام بين جدرانها الأربعة حتى يقضي نحبه، ما أشبه الناس بالساعات التي رُبطت آلاتها فمشت لا تعلم سبب مشيتها وغاية دورتها، وفي كل مرة يولد إنسان تدور الساعة لتعيد — كرة ثانية وثالثة — دورها القديم، مرددة نفس الجملة وذات المقطع بتبدل قليل لا يكاد يُحس

كل وجه بشري، وكل حياة بشرية حلم فان مستمد من روح الطبيعة التي لا نهاية لها، ومن إرادة الحياة العنيدة الثابتة. هي كالصورة أو كالخيالة تمر سريعاً، لا ترسمها الحياة على الشاطئ اللانهائي للزمان والفضاء، ولكن تتركها لحظة أو لحظتين تنعم بهذه الإقامة القصيرة، ثم تمحو رسومها، وتذهب بألوانها، مفسحة لغيرها مكانها؛ هذا هو الجانب الذي يبعث على التفكر والتأمل . . . يجب على إرادة الحياة القاسية أن تكافئ كل صورة من هذه الصور الصافية وكل أمنية من هذه الأماني الذاوية، جزاء ما تحملته من آلام عميقة وأوجاع مضنية، وذعر متكرر من الموت الذي تفر النفوس منه إليه

إن ما يجعل النساء أكثر صبراً من الرجال على الاعتناء بشؤون أطفالنا، هو أنهن يظللن أطفالاً ضيقات العقول، ويلبثن — طيلة حياتهن — أطفالاً كباراً، لا هن إلى الأطفال، ولا هن إلى الرجال

لنلاحظ فتاة غانية تلعب وتمرح — سحابة نهارها — مع طفل صغير، ترقص أمامه وتغني معه، ولنتمثل أي رجل شديد القسوة على إرادته يستطيع أن يصنع صنعها، ويقوم بدورها

في عصرنا هذا تقع عيوننا على كتاب يتخذون الكتابة مهنة، أما قبل هذا العصر فقد كان الكتاب من ذوي الإلهام، ولم يكونوا تجاراً، فلبثوا خالدين، ولبثت مقالاتهم ومواعظهم خالدة كالدهر

أطلقْ به ما عشتَ فكرَك رائداً تملكه طَرْفاً زاهداً متطيِّرا
واكففْ يمينَك عن أمور تُقتني فيه وأرسِل فيه باصرةً ترى
وأقم به حُـرًّا وأطلقْ ما به يجري على سَنَنِ الحياةِ مُحرَّرا
واقنعْ بتبرٍ من ذكاءٍ إذا جرى متحدِّراً في مائه متكسِّرا
عن كلِّ تبرٍ مالكٍ أربابَهُ لما غدا في حرزهم متحجِّرا
حُسنُ الطبيعة خيرُ ما متَّعتَهُ في عالَمٍ لمْ آته متخيِّرا
وأجلُّ أجرٍ في الخلودِ لمؤمنٍ يَبني بتقواهُ النعيمَ الأنضرا

الإسكندرية فخري أبو السعود

ادوارد هرتمان

وجد « شوبنهاور » فى « هارتمان » تلميذاً أميناً لتعاليمه ، وإن اختلف مزاجهما بعض الاختلاف ، فوجه « شوبنهاور » جامد عابس ، نافر التقاطيع ، تكاد تبرز من وجهه كل علائم التشاؤم متكلمة منتقمة ، ووجه « هارتمان » هادئ تطفو عليه من التشاؤم سحابة رقيقة لا غليظة ، فهو متشائم مقبول لا يضيق به الناس ، ولا يضيق بالناس ، ولعل تعريجه الكثير على نوادى النساء مما رقق حسه ، ولطف شعوره ، ومثل له الحياة العابسة تبسم له من وراء هذه الوجوه الناعمة ، والثغور الباسمة

مال فى بدء نشأته إلى العلوم الطبيعية ، وبعد تقلب طويل دخل فى مدرسة « السلاح » فى برلين ، ثم وجد أن هذه الصناعة لم تكن لتلائم مزاجه ولاصحته فهجرها ، وهو فى إحدى رسالاته يقص علينا أن سبب تشاؤمه لا يرجع إلى ضعف فى صحته أو اعتلال فى مزاجه ، بل يرى أن روحه فى الحقيقة روح تفاؤل ورضا ، ولكن زوجه كانت تطفو عليها سحابة من التشاؤم والكآبة الخرساء ، والعناد فى الرأى الذى تذهب اليه

كان « هارتمان » فى الثانية والعشرين من عمره حين أخذ يكتب كتابه « فلسفة اللاشعور » la Philosophie de l'inconscient. ولبث فى تصنيفه خمس سنين . ما هو هذا اللاشعور ؟ إنه الارادة عند شوبنهاور تظهر كادة شاملة عامة ، أو هى ذات فكرة « هيجل » بعد خروجها من ــ مصنع شوبنهاور ــ مبهمة مغمضة لا تدرك . ولا يرى القارىء فى هذا الكتاب مذهباً جديداً لأنه تغير للمذاهب المتقدمة ، ولا بحثاً ناضجاً لأنه عصارة شباب متوقد روحاً وعاطفة . وإنما هو شعلة أضرمتها فتوة تنطوى على علم غزير ، فتهوى نفسك أن تتبع آثار المؤلف فى ما يعطيك ويلهمك ، ولا سيما فى تحدثه عن « اللاشعور » فى مقامات العقل الانسانى وحالاته النفسية ، وفى غرائز الحيوان ، فى اللغات ومسائل الدين ، وفى كل حنايا التاريخ وما احتواه ، حتى يأتيك بالصورة الأخيرة التى يرى فيها الانسانية وقد بلغت نهايتها متعبة من إرادتها ، ومن تفكيرها ، ومن حياتها ، وهى توّاقة مشتاقة الى العدم ؛ حيث كانت ثم انتشلت منه بغير إرادتها . وهذه صورة فيها شىء من السمو الشعرى بشرط أن يتلقاها الناظر كحلم خالص قذفت به مخيلة خالية . . . .

وقد أحدث كتابه هذا دوياً بعيداً فى العالم الفلسفى والعالم الأدبى ، لا لأنه زاد ــ فى ألمانيا ــ أنصار الفكرة التشاؤمية ، بل لأن هارتمان وشوبنهاور كانا أول من صرفا الذهن الألمانى الى مواجهة المسائل الفكرية بالفكر ، وأعادا وصل الحلقتين اللتين قطع بينهما مذهب المثل الأعلى الذى سيطر على العقل الألمانى طيلة عصر طويل

إن فى كل ألمانى مثقف نزعة خاصة به تتمشى فى ثنايا روحه ، تريد أن تتحرك وأن تنمو بذاتها ؛ ترى الفرنسى يجنح الى الفلسفة لتساعده على تفهم الحياة ، وبعبارة أجلى لتعلمه كيف يعيش ؛ الألمانى ــ على الأغلب يرى فلسفته حلماً ، ولكنه يعتقد أنه سيستيقظ من حلمه هذا ، وأنه إذا أراد أن يعمل ، فعليه أن يفتح عينيه . . . وكل ألمانى يتردد فى حلمه أو يقظته ــ الى المدينة الكاملة ــ التى تحدث عنها شوبنهاور ، المدينة المشيدة على ذرى الغمام ، لأن الألمانى واسع الحلم خصب الخيال ، وهناك يغادر تصوفه الغريزى المبهم ، ويؤوب من تلك المدينة الى الحياة الحقيقية ، وهو أشد حماسة وأكثر تأهباً للمعركة التى يشنها فى سبيل الحياة

على أن هذا المذهب ، (مذهب التشاؤم) قد لقى خصوماً ألداء ممن قارعوه الحجة بالحجة ، ونازلوه نزالاً عنيفاً ؛ وحق للفلسفة كلها أن تجمع أحزابها وشيعها على محاربة « مبدأ خطر » إذا فشا هدم كل أمل فى البشرية ، وقضى على كل جهادها الطويل . وقد انضوى « الماديون » تحت لواء المعارضة ، وكان أشهرهم « أوجين دوهرينك » الذى وصل الى هذه الفكرة السامية : « بأن الحياة بمجموعها جميلة ، فى أفراحها وفى أتراحها ، على أن نتناولها كما هى بعُجرها وبجرها ، لا نحاول تغيير سنتها ، ولا تبديل طبيعتها ، ولا نطلب اليها أن تمنحنا مالا تقدر على منحه ، لأنها سائرة إلى غايتها التى لا تبالى بغايتنا ، وان فى تمردنا على نظمها شقاءنا ، وفى رضانا عن مذهبها نعيمنا »؟

« يتبع » خليل هنداوى



من أساطير الإغريق

أرفيوس الموسيقى
أو
رحلة إلى الدار الآخرة

بقلم الأستاذ دريني خشبة

أرفيوس ! لسان الطبيعة ، ونَجِيُّ الآلهة ، ووحى السماء إلى جى[1] ، وصاحب القيثارة ذات الرنين . . . والأنين

كان يعزف ، فتشيع الحياة فى الصخر ، ويقف أبوللو العظيم فى مركبته الذهبية[2] ؛ مُطِلا برأسه من عليين ، يسمع ويطرب وكذلك كانت تصنع ديانا ، فلطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية[3] فى أعلى أجواز السماء ، لتلبث هنيهة بباب أرفيوس ، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة ، من مشرق الدنيا إلى مغربها

والأشجار ! إن لها لجذوراً متغلغلة فى أطباق الأرض ، ومع ذلك فقد كانت حين تسمع أرفيوس ، تنزع اليه ، وتسير وراءه خبباً ! وكم شهد الناس حول بيته غابة من الدوح العظيم ، والأيك الذاهب ، سمت اليه تلتذ من موسيقاه ، ثم هى تنصرف فى المساء فتنغرس فى أصولها ، وقد ازدادت نضارة وازدهاراً !

ومع ذاك ، فقد كان ذا غُرَّة مشرقة ، وابتسامة حلوة ما تكاد تفارق ثغره الصغير الجميل . وكان جم الحياء ؛ لم ينهر مرة أحد رواده ، أو المترددين عليه ؛ بل كان يلقى الجميع ببشاشة الاخوة ، وهشاشة الود

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر ، وأفتن من وشى الأصيل ، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح

إسمها يوريديس . . مصدر إلهامه ، ومعين عبقريته ، ومجاز لحنه ، وأغنية حبه ، وأنشودة هواه . سئل مرة : ماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس ؟

فأجاب : « قيثارتى . . ويوريديس ! »

* * *

وكانت يوريديس تجمع الأزهار البرية فى ربرب من أترابها ؛ لتصنع منها باقة مفوّفة تقدمها لأرفيوس ، وكانت كلما راقتها سوسنة أو وقعت فى نفسها زنبقة ، طبعت عليها قبلة ندية وضمتها إلى الباقة ، وهى تقول : وأنت أيضاً لحبيبى أرفيوس . . .

وبينا هى كذلك إذا أفعى هائلة تنسل من بين الأشجار ، فتلدغ قدمها الصغيرة المعبودة المطمئنة فى الحشيش الأخضر ؛ فتصرخ المسكينة صرخة داوية ، ثم تنطرح إلى الأرض ، وتتناثر الورود والرياحين التى جمعتها حولها ، كأنها تنضد سرير موتها

وتجتمع صديقاتها مذعورات ، فتعولن وتبكين ، وتحملنها إلى أرفيوس الذى يستطار من هول الكارثة ، وينخلع فؤاده من فداحة المصاب ، ويحاول المستحيل لانقاذ أعز الناس عليه ؛ ولكن . . هيهات ! لقد ماتت ، واحلولكت الدنيا فى عينى أرفيوس التعس ، وأجدبت قيثارته من ألحان المرح ، واستروحت إلى البكاء والأنين . فيا رحمتا لمن ينصت إليها ويصغى لها ! زفرات حارة تصعّدها أوتارها ، وأنات مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها !

وأرفيوس ، مع ذلك منزو عن العالم ، عزوف عن الناس ، مستغرق فى وحدته القاسية ، يفكر فى يوريديس

وصمم ألا يفقدها كما يفقد الناس أحباءهم . بل لابد من رحلة طويلة إلى الدار الآخرة . . إلى هيدز . . حيث إله الموتى بلوتو ؛ فيضرع إليه أن يرد عليه زوجته التى لا حياة له إلا بها

(١) جى هى الأرض فى الميثولوجية اليونانية (٢) مركبة أبوللو الذهبية هى الشمس (٣) القمر

فكرة غريبة ، وتصميم عجيب ؛ رجل من دار الفناء ، له جسم ، وفيه نفس تتردد من إخمصيه إلى ذؤابة رأسه ، كيف ينفذ إلى دار الموتى وعالم الأرواح ، ومملكة الظلال والأشباح ؟ !

لكنه أمل ملأ قلبه على كل حال ، وها هو ذا يحمل قيثارته ، ويبدأ رحلته ولا يدرى إلى أين ؟

ضرب فى الآفاق على غير هدى ، وذرع الأرجاء فى ضلال وحيرة ، حتى رثت له الآلهة ، فرشّدته ، وأنارت له سبيله ؛ فاهتدى إلى ضفاف ستيكس[1] ذى الزبد ، حيث وقف شارون النوتى الجبار ، الذى يحمل أرواح الموتى فى زورقه ، يعبر بها أنهار الجحيم للقاء بلوتو العظيم

وصاح شارون صيحة راجفة حينما لمح أرفيوس ، وزمجر قائلاً : « يا ابن العدم ، ياسليل الفناء ، يامن لم تفض روحه بعد ، ما جاء بك إلى هنا ، وما تزال تتعثر فى برد حياتك الرث ، وتتكفأ فى قيد دنياك الوبيلة ؟ عد من حيث أتيت ، وإلا فوحق بلوتو المتعال لأسحقن عظامك ، ولأقذفن بك إلى ستيكس ، فيطويك اليم وتشويك الحم . . . عد . . عد . . عد أقول لك . . وى . . وبكأنك لا تسمع !! »

ولكن أرفيوس يثبت غير هياب ، ويتناول قيثارته غير وجل ، ثم يعزف لحناً من ألحانه الباكية فيزلزل به أركان شارون !

شارون ! هذا الفظ ، غليظ القلب ، أقسى حراس جهنم ، يذوب رقة ويمتلئ حناناً ورحمة لما رأى وسمع ، فيهرول إلى أرفيوس مستميحاً معتذراً عما بدر منه من سوء اللقاء ، وعبارات البذاء ، ويسأله فى لين ورفق عن حاجته فيجيب : « لا شيء إلا لقاء بلوتو ! »

فيسأله شارون : « وكيف ، وهذا بدنك لا يحتمل زفير الجحيم ؟ »

فيجيب أرفيوس : « لا عليك ، ما دامت هذه — ويشير إلى القيثارة — بيمينى »

(١) ستيكس هو النهر الكبير الذى يحيط بالدار الآخرة « هيدز » فى الميثولوجيا ، وهو يحيط كذلك بالأنهار التى تنحصر بينها جهنم ، وسيجيء ذكرها

فيقول شارون : « يا صاحبي أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم ، وإنى مخلص لك أمين ؛ إنك غض الأهاب ، موفور الشباب ، وإن جهنم لا تبقى ولا تذر ، وإنها أبداً ترمى بشرر كالقصر ، وإنى أمحضك نصحاً علمتني موسيقاك كيف أمحضك إياه ، وأستنقذك به من عذاب مقيم . . . ألا فلتفكر فيما أقدمت عليه ، فان من دونه مهالك ، وإن من دونه نكالاً وأهوالاً ... »

وتبسم أرفيوس بسمة حزينة ، كانت رداً صامتاً على ماحذر شارون ، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغني :

حملتُ جهنماً فى بعضِ قلبي ... وفى بعضٍ جراحاتٍ فنونا
فانْ حذّرتنى نارا ، فانى ... أحذّر نارك الدّمعَ الهتونا
سأطفئها به حتى تراها ... تُذرّف مثله صبَباً سخينا
تخوّفنى لظاك وفى فؤادى ... لظى ممن جُننت بها جنونا
إذاً ما الحبّ إن لم يكتنفه ... غرام[1] لا يؤود العاشقينا ؟
لقد ذُقتُ البِلى فى دارعيشى ... أفى دار البِلى أخشى المنونا ؟[2]

* * *

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة ، حتى تتحدر الدموع من عيني شارون ، ويتقدم اليه معتذراً ، فيحمله فى الزورق ، ويخوض به عباب ستيكس ، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس إلى تغيّظ الموج وتلاطمه ، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح ، فيقول : « إنك ، وأنت من أنت ، من فوقه ، سبب هياجه واصطخابه ؛ ولو خُلّى بينك وبينه لما أنجاك منه شيء حتى تكون فى أعماقه ! ! » ولكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة ، ويتناول قيثارته فيوقع إحدى أناته الشجية ، فيهدأ ستيكس الصاخب ، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه !

وتطول الرحلة ، ويعبران (أشيرون) نهر العدم ؛ و (ليث) نهر النسيان ، و (كوكيتوس) نهر الآلام ، و (فليجتون) نهر الحم واللهب ، ويصلان آخر الأمر إلى (هيدز) — دار الموتى — ومملكة بلوتو ، بعد عقبات وأهوال تغلبت عليها جميعا قيثارة أرفيوس ، بألحانها الرقيقة ، وأنغامها الباكية

(١) غرام أى عذاب
(٢) الابيات مترجمة عن أصل يونانى

وتبدأ من هـذا الشاطئ الأخير رحلة شاقة فى ظلام دامس وحلك شديد ، فى مسالك ملتوية ، وشعاب متداخلة ، لا تجدى معها موسيقى أرفيوس فتيلا ؛ وهنا يبدو له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يوريديس ، كيف حملها شيرون فى زورقه ، وكيف عبر بها فى هذه الفجاج الى القر الأخير ، وهل كانت تبكى ؟ أم كانت راضية بالقضاء الذى فصلها من أحبّ القلوب وأقصاها عن أعز الناس ؟ وهل حدثته عن الشاب أرفيوس ؟ أم كانت فى شغل عن كل شئ بما هى فيه؟ وهل كل روح من أرواح الموتى تستغرق كل هذا الزمن فى عبور أنهار هيدز وفيافيها ؟ وهل تألمت يوريديس حين كانت تعبرها ؟ . . .

وكان شارون يجيب عن هذه الأسئلة المتتابعة إجابة مستفيضة حتى وصلا الى بوابة كبيرة الحجم ، تصل إلى قصر بلوتو ؛ ولكن كلباً ضارياً بادى النواجذ بارز الأنياب كان رابضاً عندها ؛ فلما لمح أرفيوس ، وهو من غير الأموات ، هاج وماج ، وتوثب يريد البطش بهذا اللاجئ الممنوع !

وتنبه أرفيوس ، فحرك أوتار القيثارة ، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه ؛ فثاب الكلب وهدأ ، وبعد أن أقعى قليلاً ، تقدم إلى الضيف الحبيب يلحس قدميه ، ويتمسّح به . . . ويا للموسيقى !

* * *

ثم هذا عرش بلوتو ؛ وإلى جانبه زوجته الربيع ، برسيفون(١) كسيرة القلب مهيضة الجناح ، تعلو أسارير ها عبوسة قاتمة ، وتجثم على قلبها لوعة داعة . يالبرسيفون ! ويا لهذا المنفى السحيق !

ولشد ما دهش بلوتو حين بصر بهذا المخلوق الذى استطاع أن ينفذ إلى هيدز ، وفيه رمق من حياة ؛ بقضه وقضيضه ، وبجره وبجره ! !

وقبل أن ينبس بلوتو ، جثا أرفيوس لدى قاعدة العرش ، وطبع على الأرض قبلة كلها احترام ووقار ، ثم تناول قيثارته ، وطفق يتغنى بقصته الشجية ، يرسلها خلال أنغامه الحزينة ، وملء ألحانه اليتيمة . . حتى أتمها

وكانت الموسيقى ممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامى ، قد تغلغلت فى السويداء من قلبى الزوجين ؛ وكانت الرنات ، ممتزجة بالأنات ؛ والهديل ، ليس مثله هديل ، قد أحدث أثره فى نفسيهما ، حتى أن دمعة مترقرقة شوهدت تنسكب على خد برسيفون !

وفى الحق ، لقد هاجت قصة يوريديس شجون برسيفون ، لما لحظت فيها من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة ، فى هذا الملك البغيض !

وازعج بلوتو لمجرد وسواس لج فى صدره ، لما شاهد من تأثر زوجته ، وانسكاب هذه العبرة الحزينة على خدها الشاحب ؛ حتى لقد خيل اليه أن شياطين الحب قد قفزت من فم أرفيوس الخبيث ، ومن موسيقاه الشاجنة ، إلى قلبها الغض الصغير !

وقال بلوتو : « انهض أيها الشاب ، فوحق أورينوس(١) لقد كدت تكون من الهالكين ، لولا قصتك الباكية ، وموسيقاك المبللة بالدموع . والآن ، ماذا جاء بك هنا ؟ وما الذى تطلب أن ينتهى اليك من إحسان بلوتو ؟ »

فركع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة ، ثم قال : «مولاى ! يوريديس يامولاى ؟ تأمر فتعود أدراجها معى إلى الحياة الدنيا ! »

فأجاب بلوتو : « طلبت المحال أيها العبد ؛ ولكن بلوتو الكريم ، لن يرد رجية بائس مثلك . لك ما سألت ، وستعود يوريديس معك ، ولكن على شريطة واحدة ! ألا تراها حتى تخرج من هيدز . إنها ستتبعك ، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى ! »

وركع أرفيوس ركعة الشكر ، ثم قال : « سأنفذ مشيئة مولاى . »

* * *

وأمر بلوتو فأحضرت روح يوريديس ، وبدأت الرحلة إلى الدار الأولى ، فى ظلمات بعضها فوق بعض ، والحبيبان يدلجان خبباً وكان قلب أرفيوس يدق . . . ويدق

وإنهما ليكادان يبلغان العُدوة الأخيرة من نهر ستيكس ، حتى يوجس أرفيوس خيفة ، ويظن — وياشر ما يظن — أن يوريديس قد ضلت سبيلها من ورائه ، فينسى شرط بلوتو ؛ ويلتفت فجأة خلفه ، ليرى أنها ما تنفك تتبعه . ولكن ياللهول !

(١) برسيفون ، أو بروزربين ، كما يسميها الرومان ، وهى ربة الربيع التى اختطفها بلوتو لتؤنسه فى وحشته فى هيدز ، بعد إذ رفضت جميع الربات مقاسمته ملكه ، وقد ننشر أسطورتها قريباً

(١) أورينوس هى إله السماء ، أبو الآلهة ، فى الميثولوجيا

لقد رأى يوريديس باسطة ذراعيها إليه ، كمن يتلمس طريقه فى الظلام ؛ وحين تراه يلتفت اليها ، فيخل بالشرط الذى عاهد ربها على تنفيذه ، تنثنى من لدنه راجعة أدراجها إلى هيدز ... متمتمة فى صوت ضعيف خافت : « وداعاً يا أرفيوس » ! ياحبيبى أرفيوس .. وداعاً .. » . فيصرخ المسكين صرخة يكون معها فى هذه الحياة الدنيا ، حياة الشقاء والآلام ! !

ويظل على شاطئ ستيكس سبعة أيام مفجعاً محزوناً ... يحاول عبثاً أن يعود إلى هيدز ... ولكن ... هيهات !

ويدخل الدنيا محطم القلب ، خفق الأحشاء ، موهون القوى ... لايطيب له عيش ، ولا يسيغ لذة من لذائذها . ويتخذ مأواه فى شعاف جبل تزمزم الرياح فى جنباته ، وتزمجر الوحوش فى غيرانه ، وتدوّى البواشق فى قننه ، ويكون كل أولئك خير صحابه ، وياما أعز الرفاق !

***

وتلقاه نسوة ممن اعتدن التخلف اليه فى أيامه المواضى ؛ فيحتلن عليه ليعزف لهن من ألحانه ؛ ولكنه يعزف عنهن ويشيح ؛ ثم يفر منهن ، فيقتفين أثره ، فيمعن فى الفرار ، فيتضايقن ، ويصمينه بسهامهن ؛ ثم يرجمنه بالحصى المسوّم ، والحجارة الثقال ؛ حتى يموت :

ويسمعنه إذ هو يجود بروحه يقول : « يوريديس .. يوريديس ! »

فتردد الأصداء نداءه الحزين : « يوريديس ... يوريديس ! »

ومازال الأشجار والأطيار تهتف إلى اليوم هتاف موسيقارها المغبون : « يوريديس ... يوريديس ! »

***

وانطلقت روحه البريئة تعبر بدورها ستيكس ، وأشيرون ، وليث ، وكوكيتوس ، وفليجتون ... فيتلقاه شارون الجبار باسماً هاشاً محيياً .. ويجلسان معاً فى الزروق ، يقصان ذكريات الماضى ... القريب ! ويتلقاه الكلب عند البوابة ، فيهرول اليه ، ويتمسح به ، وفاء وذكرى ! ويتلقاه بلوتو كذلك ، فيهنئه بالعود ... إذا كان العود أحمد ! !

أما يوريديس ... !

دريني خشبة

البريد الأدبي

رسائل سنت بيف

صدرت أخيراً مجموعة من رسائل سنت بيف العامة ، وهي قسم من رسائله التي لم تنشر ، والتي تملأ نحو عشرة مجلدات ، وتولى إصدارها مسيو جان بونرو مقرونة بمختلف الشروح والبيانات . ومسيو بونرو هو اليوم أعرف الناس بسانت بيف وتراثه الأدبي . ويكفي أن نعرف سانت بيف بكلمة ، هي أنه أستاذ النقد في الأدب الفرنسي ، ويعتبره بعضهم إمام النقد في جميع الآداب والعصور . وتشمل هذه المجموعة الأولى رسائله العامة بين سنتي ١٨١٨ و ١٨٣٥ ، وهو بالنسبة لسنت بيف عهد التكوين الأول منذ مقدمه الى باريس صبياً في الخامسة عشرة حتى التحاقه بتحرير مجلة « العالمين » وتوليه باب النقد فيها . وفي هذه الفترة الحافلة درس سنت بيف الطب ، وبرز في الصحافة ، ونشر كتابه عن الشعر الفرنسي في القرن السادس عشر ، وأنجز قسماً عظيماً من رسائله النقدية ، وأخرج كتابه عن شعر يوسف دبلورم وروايته «الهيام» ، ثم تطورت حياته الأدبية واستقرت حول النقد الأدبي . وفي هذا العهـــد أيضاً تعرف سنت بيف بأقطاب الأدب في عصره مثـل دي ڤيني ولامرتين وهوجو وبيرانجيه وشاتو بريان ، ولـكن العلائق الودية لم تطل كثيراً بينه وبين أحد منهم ، لأن مهمته كناقد أدبي ، وتوغله في ذلك الميدان وصرامته وحدة قلمه ، لم تفسح مجالاً لمثل هذه الصداقة الخاصة ، وهنا تلقي رسائل سنت بيف أكبر ضوء على هذه العـلائق والصداقات ، وتبين لنا الى أي حد كان النقادة الأشهر حريصاً على رأيه واستقلاله ؛ بيد أنها تكشف عن ناحية أخرى من صفات سنت بيف ، فهو لم يكن رقيق الطبع ، ولم تكن روحه ترتفع الى مستوى ذهنه من السمو والصقل ؛ والواقع أن هـذه الرسائل الخاصة ليست مما يؤيد عظمة سنت بيف ، وإن كانت تفسر لنا كثيراً من خواص روحه المعقدة ؛ ففيها يبدو لنا قليل الـكرم ، قليل الصراحة ، مسرفاً في الحقد ؛ ولعله لم يكن لينفذ الى فكر الغير ومواهبه وأسراره إلا لأنه كان كثير الحقد والبغض

ولئن كان سنت بيف بديعاً لايجارى في تصوره وتحليله للقدماء ، فان أحكامه على معظم معاصريه كانت تتأثر في الغالب بعواطفه الشخصية ، وليس أدل على ذلك من قسوته في الحكم على الفرد دي ڤيني ، وبلزاك ، وشاتوبريان ، ولامرتين

ذلك أن سنت بيف كان نكد الروح ، وقد كان قبيح الهيئة ، وكان في حاجة لأن يحب ، وكان رقيق الحاسة ، معقد العواطف ، ولم يلق نجاحاً في الحب ولا في المـكتبة كشاعر وكاتب وقصصي ، هذا بينما كانت تحيط به عبقريات سـعيدة ، محققة الأماني والرغبات ، تنعم كتبها تأييد الجمهور . ويروى أنه قال ذات يوم إذ يشاد أمامه بعبقرية دوموسيه : «لست أقل شاعرية منه» . ولم يكن سنت بيف يجهل معايبه ، بل كان يفطن اليها ويشقى بها ، بيد أنه يجب أن نعترف بأنه كان يسمو دائماً بمثله الأعلى كناقد ومؤرخ للآداب ، وأنه لم يكن يدخر وسعاً في خدمة هذا المثل باخلاص ، وهذا هو السر في عظمة تراثه الخالد

ولعل أهم ما تفصح عنه هذه الرسائل الجديدة لسنت بيف هو علاقته مع فكتور هوجو ؛ وقد اتخـذت تلك العلائق صورة مأساة حقيقية . والمأساة معروفة ؛ ولـكن الرسائل تلقي عليها ضوءاً جديداً . وخلاصتها أن سنت بيف وهوجو جمعتهما منذ سـنة ١٨٢٧ مدى ثلاثة أعوام صداقة خالصة لم تشبها شائبة ، ولـكن سنت بيف تغير فجأة . ذلك أنه شعر أنه يهوى امرأة صديقه ؛ وهنالك رسالة عجيبة تفصح عن حالة سنت بيف النفسية في أوائل سنة ١٨٣٠ ، وهي رسالة عنيفة صارمة ينذر فيها سنت بيف بأنه لن يكتب عن رواية « هرناني » التي ستمثل يومئذ ، (وهرناني من تأليف هوجو) ، وأنه لم يعد يحتمل جو الصداقة والشاعرية الذي يعيش فيه مع أصـدقائه مذ تظاهر هوجو بأنه زعيم مدرسة ، وغص منزله بالمعجبين والأنصار حتى أصبح مكاناً عاماً ، والظاهر أنه قد وقعت بين الصديقين على أثر ذلك محادثة اعترف فيها سنت بيف لصديقه بأنه يحب زوجه . وقد كان هوجو في تلك المسألة جواداً كريم النفس ، فاستقبل هجر صـديقه بأدب ، مؤكداً له أنه سيلقى فيه دائماً أخاً وصديقاً . واعتكف

سنت بيف مستسلماً الى الحقد والأسف والغيرة ، مصوباً سهمه لكل من لقيه في طريقه ؛ وعكف هوجو على مكاتبه ، يعزبه ويروح عنه ؛ ومضت ثلاثة أعوام ، وسنت بيف ماض في طريقه ، وكلما التقى الرجلان آنسا تلك المرارة التي غشيت صداقتهما ؛ وأخيراً ألقى سنت بيف قناعه ، وأعلن الخصومة على صديقه ، فاستسلم هوجو للقدر . ولكن الذي لم يكن يعلمه هو أن زوجته كانت تثابر خفية على رؤية سنت بيف في الأماكن المهجورة ، كالكنائس وغيرها ، وكانت تتنزه معه في عربة . وما زال التاريخ يتساءل : هل كانت اديل هوجو زوجا خائنة ؟ والرأي المرجح هو أن اديل كانت تبادل سنت بيف حبه ، ولا سيما منذ سنة ١٨٣٢ ، أي مذ غدا زوجها عاشقاً لجوليت دردبه . وقد ضاعت رسائل اديل لسنت بيف ، ولكن سنت بيف كان يحتفظ بصور بعضها ؛ وفيها تتحدث اديل عن حبهما . ولقد أيد لوى بارتو في كتابه « غرام شاعر » زلة اديل ودلل عليها

وإن في رسائل هوجو مع ذلك مايدعو حقاً الى التأثر ؛ فقد لبث يجهل كل شيء مدى أعوام ، وتطبع رسائله الى سنت بيف بساطة وثقة ومودة مؤثرة ؛ فلما ظهرت الحقيقة ووقعت الفضيحة كانت شديدة على نفسه ، ومع ذلك فان اديل هوجو لبثت حيناً بعد ذلك ترى سنت بيف وتحاول أن توفق بين الصديقين القديمين ، وذلك شاهد في رأي البعض على براءة اديل وطهرها . أ كانت تسعى الى مثل هذا الوفاق لوكانت امرأة خؤونا ؟

(ملخصة عن أميل هريو في الطان)

للحقيقة والتاريخ

قرأت في العدد ٨٤ من مجلة الرسالة الغراء مقالاً للكاتب العبقري الدكتور عبد الوهاب عزام سجل فيه مجلساً من مجالس العلامة الواعية الشيخ الخالدي يذكرنا بالأمالي القيمة التي كان يلقيها فطاحل علماء الاسلام في عصور مدنيته الزاهرة

وقد لاحظنا في هذا المقال ملاحظتين بسيطتين أحببنا ألا يفوت قراء الرسالة التنبه اليهما :

(١) لما عدد الشيخ دور العلم المظيمة بالمغرب وذكر جامع القرويين بفاس قال : (إن الذي أسسه هو مولاي ادريس الأصغر) والحقيقة أن بناء القرويين كان بعد وفاة المولى إدريس باثنين وثلاثين سنة إذ شرع في بنائه يوم السبت من شهر رمضان عام خمسة وأربعين ومائتين ، والمولى إدريس الأصغر توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين وكان ذلك في عهد يحيى بن محمد بن إدريس والقائمة بتأسيسه هي السيدة (أم البنين) فاطمة بنت محمد بن أبي بكر الفهري قدم والدها من القيروان لفاس وتوفي بها وخلف ابنتين فاطمة هذه وأختها مريم ، وأورثهما مالاً كثيراً صرفت فاطمة حظها منه في بناء القرويين ، وفعلت مريم مثل ذلك فأسست مسجد الأندلس الذي يعتبر من المساجد العتيقة بفاس

(٢) ذكر الشيخ حين نسب كتاب (جذوة الاقتباس) لابن القاضي أنه فشتالي (من فشتالة على نهر ورغة) والمعروف أن مؤلف الجذوة (ابن القاضي) من أولاد ابن أبي العافية المكناسيين ، نسبه لذلك جميع من ترجم له ممن وقفنا عليه ، بل هو نفسه انتسب اليهم في كتابه لما ترجم لموسى بن أبي العافية أمير مكناسة بعد أن تبرأ من أفعاله مع الأشراف ونص الغرض من كلامه : « ونسبتنا نحن هي إلى هذا الرجل أعني موسى بن أبي العافية والله أعلم ، لكن فعله الذي كان منه لأهل البيت لا أرضاه . . . الخ »

أما كتاب الشريف الكتاني فلا يسمى بالجذوة بل هو (سلوة الأنفاس فيمن أقبر بفاس) وهو للسيد محمد بن جعفر الكتاني الشهير برحلته إلى الشام وإقامته بها والمتوفى بالمغرب منذ بضع سنين

فاس — محمد علال الفاسي

مجلة الثقافة الاسلامية في اسبانيا

قالت جريدة « المانشستر غارديان » أن المستر مارمادوك بكثول اعتزل خدمة نظام حيدر أباد وفي نيته أن يعيش في اسبانيا حيث يواصل تحرير مجلة تصدر كل ثلاثة أشهر تسمى « الثقافة الاسلامية » صدرت منذ عشر سنوات

والمستر بكثول شاعر له مؤلفات كثيرة عن الشرق وكان يعمل في وزارة المعارف في حيدر أباد . وقد درس أخلاق الشعوب الشرقية فاقام عاماً في جبل الدروز وتعلم العربية . ومال إلى أفكار بعض الشرقيين ودرس عيشة الوطنيين في مصر وله فيها أعمال قام بها في مستهل هذا القرن لا تزال سراً من الأسرار

مؤتمر نادي القلم الدولي

من أنباء أسبانيا أن الاستعداد يجري في مدينة برشلونة عاصمة قطلونيا لعقد المؤتمر الثالث عشر لنادي القلم العالمي . وسيعقد هذا المؤتمر لمدة ستة أيام بين ٢٠ و ٢٥ مايو القادم . وسيشهده مندوبون من مراكز القلم في أنحاء العالم . وقد أعد برنامج حافل للأعمال الداخلية ، ومختلف الحفلات والاستقبالات والرحلات

من هنا ومن هناك

العلم والسياسة

كثر حديث الصحف البلجيكية والفرنسية أخيراً عن نظريات العلامة الاقتصادي البلجيكي هنري دي مان ؛ ويعتبر هذا العلامة من أقطاب الاقتصاد السياسي في العالم ، وكان إلى ما قبل عامين يتولى تدريس الاقتصاد السياسي في بعض الجامعات الألمانية ، ولكنه عزل منذ قيام الحكومة الهتلرية ؛ فعاد إلى وطنه يبشر بنظرية جديدة في السياسة ؛ وخلاصة رأي دي مان أن السياسة الدولية الحاضرة تقوم على الاقتصاد ، وأن الأزمة الاقتصادية هي في الواقع أساس كل الانقلابات السياسية العنيفة التي وقعت في العهد الأخير ؛ ولم يكن قيام الفاشستية في إيطاليا ، وقيام الهتلرية في ألمانيا إلا من أثر الأزمة الاقتصادية ؛ وليس هناك وسيلة لحماية النظم الديموقراطية ومقاومة الطغيان أفضل من ترقية الاقتصاد القومي ومقاومة الأزمات الاقتصادية . ولنظريات هنري مان أثر كبير في بلجيكا ، وله نفوذ عظيم في الأوساط الاشتراكية والديمقراطية

جوكي يصبح شاعراً

أزيح الستار في وستمنستر مؤخراً بحضور الدوق أوف يورك عن النصب التذكاري الذي أقيم تخليداً لذكرى لندساي جوردن شاعر استراليا القومي

وقد أسهبت الصحف والمجلات بهذه المناسبة في الكلام عن حياة هذا الشاعر ، الذي أسندت اليه أمارة الشعر في أوستراليا بعد موته وبعد حياة عجيبة حافلة بالمغامرات

ولد لندساي في سنة ١٨٣٣ والتحق في شبابه بالمدرسة الحربية في « ولريتش » وهناك عرف شارلوس غوردون الذي عرف فيما بعد باسم غوردون باشا

وأغرم لندساي بالألعاب الرياضية ، وامتاز في مباريات الملاكمة والسباق وركوب الخيل ، وعند مابلغ التاسعة عشرة من عمره ركب أحد جياد السباق واشترك به في إحدى المباريات على الرغم من أنف صاحب الجواد ، وفاز بالجائزة الأولى ، ولكن صاحب الجواد كان قد أبلغ الشرطة فألقى البوليس القبض عليه وكانت المدرسة الحربية قد طردته ، وضاق أبوه به ذرعاً ، فرحل الى أوستراليا ؛ ومع أنه كان مزوداً بخطاب توصية الى حاكم أوستراليا الجنوبية إلا أنه لم يستغل هذا الخطاب ، وانضم الى فرقة البوليس الراكب ؛ ولكن حدث في أحد الأيام أن طلب اليه ضابطه أن ينظف حذاءه ، فغضب لندساي واعتقد أنه أهين فترك خدمة البوليس واشتغل (جوكياً) واشترك في كثير من المباريات ، وسقط عن ظهر جواده مراراً وأصيب برضوض أقعدته عن العمل مدة

وفي سنة ١٨٦٤ توفي أبوه ، فورث عنه بضعة آلاف من الجنيهات . وتزوج بابنة فندقي كانت قد عنيت به في مرضه

وفي هذه الأثناء اشتغل لندساي بقرض الشعر ، ونشر ديوانه في سنة ١٨٦٧ ، ولكن الديوان لم يلق رواجاً ، ولم يبع منه أكثر من مائة نسخة ، فغضب لندساي على الشعر كما غضب قبلاً على خدمة البوليس

وفي سنة ١٨٧٠ كان لندساي يعاني أزمة شديدة ، لأن المرض أقعده عن ركوب الجياد ، وماتت ابنته الوحيدة وضاقت الدنيا في وجهه . فقصد الى غاب قريب ، وهناك أطلق الرصاص على نفسه فمات منتحراً وهو لا يزال في السابعة والثلاثين من عمره . ولم يشترك في تشييع جنازته غير بضعة أفراد

ولم تكد جثته توارى في التراب حتى شرع بعض الأدباء في استعراض قصائده . وما لبثت أوستراليا أن وجدت فيه شاعرها القومي . ولا يوجد الآن تلميذ في مدارس أوستراليا لا يحفظ عن ظهر قلبه قصيدته المشهورة (الفارس المريض)

« الجريدة السورية اللبنانية »

ذكرى علامة ألماني

احتفل المعهد العلمي الألماني أخيراً بذكرى العلامة المخترع فرتز هابر الذي توفي منذ نحو عام في برلين ، ودفن في صمت

مطبق . ولهذا الاحتفال الذى يقيمه أعظم معهد علمى فى ألمانيا ، يجمع أقطاب العلم الألمانى كله ، مغزى مدهش . ذلك أن فرتز هابر يهودى تنكره ألمانيا الهتلرية ، وتنكر كل جنسه ، ولـكن فرتز هابر هو أيضاً أعظم كيماوى ومخترع ألمانى ظهر فى العصر الأخير ، وهو الذى اخترع « غاز » الحرب الخانق ، وأمد ألمانيا خلال الحرب بأعظم سلاح استطاعت أن تصمد به لخصومها أعواماً ، وقد لبث هابر عميد المباحث الكيماوية الألمانية حتى قام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا ، ونظمت مطاردة اليهود المعروفة ، فاعتكف العلامة الشيخ فى شبه اعتقال ، وتوفى بعيداً عن كل تكريم وضجة ، ولـكن ألمانيا الهتلرية تحاول اليوم أن تعيد صرح العسكرية البروسية القديمة ، وهى لا ترى اليوم بأساً من أن تكرم ذكرى قطب من أقطاب الاختراعات الحربية ، ولا بأس أن يجتمع أكابر العلماء الألمان برغم النظريات الجنسية لتكريم زميلهم وعميدهم الراحل الذى استطاع أن يستخرج « الآزوت » من الهواء ، وأن يخترع « غاز » الحرب ، وكذلك أقنعة النجاة الواقية من الغاز ؛ وخطب عدة من أكابر العلماء بينهم بعض الرجال الرسميين فى تمجيد ذكرى العلامة الراحل وذكرى وطنيته ونبوغه ؛ وأكد العلامة بلانك والكولونل كيرث أن فرتز هابر يستحق لقب « العالم المجهول » وأنه لولا اختراعاته لما استطاعت ألمانيا أن تتابع الحرب منذ سنة ١٩١٥ ، وذكر الخطباء كيف وفق هابر الى اختراع « الغاز » فى ابريل سنة ١٩١٥ وأشرف بنفسه على أول هجوم استعمل فيه الغاز فى منطقة « ايبر » ؛ وأنه لو لم تقتصد ألمانيا فى حرب « الغاز » لكان ظفرها فى الحرب مرجحاً

ومع أن السلطات الرسمية صرحت باقامة هذا الاحتفال ، فانها حظرت على الصحف أن تنشر عنه شيئاً ؛ ولم يعرف إلا مما نشرته الصحف الأجنبية لمراسليها .

وهكذا تعيش ألمانيا النازية فى غمر من التناقضات !

بعثة أثرية فى الهند تعثر على اكتشاف غريب

عثرت بعثة أثرية انجليزية فى الهند على آثار قديمة يرجع عهدها الى خمسة آلاف سنة . وقد تضاربت الآراء فى هذه الاكتشافات الغريبة التى وجدها هؤلاء إذ أنها تتألف من تماثيل متباينة الأشكال والأوصاف

فقد وجد رجال البعثة فيما وجدوه قاعتين كبيرتين تحت سطح الأرض امتلأت الأولى بهيا كل شبان طوال القامة ، والثانية بهيا كل متلاصقة الأجسام من رجال ونساء . فحار المكتشفون فى هذه الهيا كل وظلوا ينقبون ويعملون حتى عثروا على لوحات كتبها المؤرخون القدماء أماطت اللثام عن سر الغرفتين الذى يعد فى التاريخ أبرز حادث للتبذل والقساوة

وهذه اللوحات تشير الى كاهنة شابة تدعى « لبيسوبامو » كانت تتمتع بنفوذ الملوك والملكات . وهذه الكاهنة كانت محبوبة من الشعب ومقدسة منه

ولـكن حدث لسوء الحظ أنها أحبت شاباً من عامة الشعب فخنق أخوها على هذا الشاب وقتله . وغضبت الكاهنة وتبدلت أخلاقها واستحالت من فتاة محتشمة الى امرأة متبذلة ؛ وصارحت أخاها الذى قتل عشيقها الأول دفاعاً عن عرضها بأنها ستقدم نفسها الى كل عابر ، وأنها ستحب الرجال جميعاً وتنتقم منهم جميعاً

ومضت الكاهنة فى حياة التبذل حتى أصبحت فضائحها حديث الناس . وعندئذ خطر لها أن تلتمس الحصانة بإيهام الناس أنها ارتفعت الى مصاف الآلهة . ونجحت فى ذلك ، ولم تذكر لنا اللوحات كيف نجحت

ضمت الكاهنة اليها عدداً كبيراً من أجمل البنات أطلقت عليهن اسم « حاشية العذارى » واشترطت عليهن أن يحذون حذوها فى التغرير بالرجال والتنكيل بهم ، وتوعدت بالموت كل فتاة تحب رجلاً وتخلص له

وهكذا كانت الفتيات يرتدين الغلائل الرقيقة التى تكشف عن تقاطيعهن الجميلة وينطلقن فى شوارع المدينة ليلاً لاصطياد الفتيان ، ثم يعدن بهم الى القصر حيث يقضى الجميع الليل كله فى التبذل واحتساء الخمر وتعاطى الأفيون حتى اذا أقبل الفجر وضعت كل فتاة فى كاس فتاها قطرة من سم عجيب لا تذكر بجانبه سموم بورجيا ودى مدسيس ، وبعدئذ يأتى العبيد فيحملون الرجال الى غرفة خاصة يقضون فيها نحبهم قبل أن يفيقوا من نشوة الخمر

وكان يتفق فى بعض الأحيان أن تحب الفتاة أحد أولئك الرجال فتؤثر أن تموت معه ، وتضع السم فى كأسها وكأسه ، فيحمل العبيد الاثنين إلى الغرفة الثانية الخاصة بالعاشقين

ولم تذكر اللوحات التى عثر عليها رجال البعثة كيف كانت خاتمة تلك الكاهنة المتألهة المتبذلة

« الأرز »



من « شقائق الطور »

لشاعر الهند محمد اقبال

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

أيها الفاضل لا تخيّم على الساحل . فهناك نغم الحياة واهنة . اقذف بنفسك فى اليمّ وتقلب مع أمواجه ، فالحياة الخالدة فى هذا الجلاد

لا تحدّث بالحياة وحقائقها ، فلست بصيرا بطرائقها . لقد انتشيتُ من لذة الأسفار ، حتى لا أرى المنزل على الطريق إلا كالمنار (١)

إن عالمنا الذى لا يُحدّ غريق فى بحر الأيام ، فانظر إلى القلب لترى الأيام غرقى فى هذا الجام (٢)

أنا نجىّ طير المروج الخضراء ، وأنا لسان البراعيم الخرساء ، فاذا متّ فاذرُ ترابى فى الصّبا ، فلستُ أعرف إلا الطواف حول الورد

أيُظهر وادى الأزهار هـذا كل كائن ؟ فما الذى فى ضمائر الشقائق المحترقة ؟ نحن نرى المرج موجة من اللون والريح ، فليت شعرى ما المرج فى نظر البلابل ؟

أيها الفىرّ أنت ابن الأسلام ، فاهجر الأنساب والألوان . إذا فخر العربى باللون والدم ، والعصب والجلد ، فليس منا ولسنا منه

لسنا من الأفغان ولا الترك والتتار ؛ نحن بنو هذا المرج ، نمتْنا دوحة واُحدة . إنّ فُرقة اللون والريح علينا حرام فقد أنبتَنا ربيع واحد

لماذا تسألني ما أنا ومن أين أتيت ؟ أنا ابن نفسى منذ حييت . أنا فى هذا اليمّ موج لا يستقر ، فاذا لم أتقلب على نفسى فنيت

إن عالمنا صورة ناقصة ، يتقلب بها الصباح والمساء . أعنى أن مبرد القضاء يسوّى هذه الدمية التى لم تتم

شق طريقك بفأسك ، فالعذاب أن تسلك سبيل غيرك ، إن أبدعت يدك عملا ، فهو ثواب وإن كان إثما

إن دليل القلب لا يطمئن الى المنازل ، ولا تأسره العناصر . لا تحسبنّه مستريحاً فى البدن ، فهذا البحر لا يألف السواحل

أخذت خلوتى بين الماء والطين ، وفررت من الفارابى وأفلاطون . ما اجتديت من أحد عينا ، وما رأيت العالم إلا بعينى

أيها القلب خذ رمز الحياة عن البراعم ، فالحقيقة فى مجازها متجلية ! إنها تنبت من التراب المظلم ، ولكن نظراتها أشعة الشمس

عبد الوهاب عزام

(١) يرى المنزل الذى يريده مناراً يرشد إلى منزل آخر وهلم جرا
(٢) يعنى أن القلب صغير كالكأس ولكنه يحوى العالم

الوحـــــدة

L'isolement

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مهداة إلى الأستاذ . . . . أحمد حسن الزيات

لدى[1] مَسْرحة من فوق قلة شاهق
جلست شريد الفكر منشعب القلب
يشيّع طرفى الشمس عند دلوكها   ويرقب من تلك المشاهد مايصبى
إذِ النهر صخابٌ تلاطم موجه !
قد انساب فى الوادى فأممن فى الشّعب
وإذْ طرفُ أمواج البحيرة راقدٌ   تراءى نجوم الليل فى غمرها الرحب
وما زال ذوبُ التبر بعــد غروبها
يُنيرُ أعالى الدوْح فوق ذرى الهضْبِ
وراح مليك الليل يختال صاعداً   إلى عرشه العلوىّ فى رفرفٍ رطب
وفى جنبات الأرض تبر مشعشع   به ازدهر الأفق الجميل من السكب
وقد رنّ فى الأجواء ناقوس معبدٍ   رنيناً يهز القلب فى البعد والقرب
فكف عن الأعمال فلاح قريةٍ..!   وقد وقف الغادون من خشية الرب
قد اختلطت تلك الأرانين بالذى   تَبَقّى من الضوضاء فى يومنا المُصبى
ولكن نفسى من مباهج ما رأتْ   من المنظر الفتّان خلو من الحب!!
أجل ! كانت الدنيا بعينى كأنها   خيالٌ مطيفٌ لا يقر على هُدْب
وهل تَدفئ الموتى من الشمس شعلة
تشع على الأحياء فى السهل والكُثب ؟
أقلب طرفى فى الجبال وفى الربى
وفى الشفق الباكى من الشرق للغرب!!
وفى القفر، والمأهول، فى غسق الدجا   لأنفض ما فيها ؛ فأبلغ من إربى
عسى أن أرى لى فى محلٍّ سعادةً   ولست بلاق أو أغيِّب فى الترب
وماتصنع الوديان لى ، وجواسق   على السفح بل تلك القصور التى تصبى
إذا هى لا تبدو لعينى جميلة . . .   ولا سحرها ينفى بفتنته كربى !!!
ألا يا مغانى الأنس أنت عزيزة   علىّ ، ولكن قد خلوتِ من رحبى
لغيبة مخلوق مدى الدهر واحد   أراك قفراً فى عيونى ، وفى قلبى
سواء أتبدو الشمس أم هى تختفى   وتصحو سماء.. أم تَلَفَّعُ بالسحب
ويظلم ليل . . أم ينير صباحه   ويسعد أو يشقى أنيس مع السرب
فليس لنفسى فى نهارىَ بغيـة   ولا فى غدى مادمت أحيا بلا لب
ولست أرى إذ أتبع الشمس ناظرى   تدور على الأكوان فى أفقها الرحب
أجل لا أرى إلا فراغاً وخلوةً   لنأى حبيب ليس باقٍ لدى الترب
وما حاجـــتى فيمن تظلله السما
ومن تحت نور الشمس يهتز كالقضْب
وخلف مدار الشمس شمس مدارها   على عالم أسمى تقنع بالحجب ..!!
فلو أن نفسى أطلقت من قيودها   لألفت حبيب القلب يحيا مع الشهب
فأســـعد باللقيـا ، وأنعم بالمنى
وأحسو رحيق الخلد من ريقها العذب
لدى مُتَع لم تهف يوماً بمسمع   ولا خطرت فى فكر ذى شغف صب
وأنّى لنفسى أن تطير فتلتقى . .   وقد قُيدت من حمأة الطين بالجذب
فياليت شعرى لِمْ قضى الله أن أرى   شريداً ؛ وخلى ليس ينعشه قربى
إذا ماذوت أوراق دوح بمرجها   وأسلمها قر الخريف إلى السّلب
وهبّت من القطب الرياح زعازعاً   عليها فألقتها أباديد فى الترب
وحالى شبيه فى حياتى بحالها   فياويح نفسى من زعازعها النكب
ألا فانثرينى يا أعاصيـر مثلما   نثرت من الأوراق فى جوك الرحب
فما بعد هذا الصبح إلا دجنّة   وما بعد يأسى وانفرادى سوى خطبى

دير الزور   عبد الجبار الرحبي

(١) نظمتها عن ترجمة الاستاذ الزيات فى العدد ٨١ من الرسالة

الـكتب

علم الدولة : تأليف الأستاذ احمد وفيق
أبو تمام : تأليف عمر فروخ

للأستاذ محمود الخفيف

أما أولها وهو علم الدولة ، فهو الجزء الثانى من تلك الموسوعة الكبيرة التى اضطلع بتأليفها وإهدائها إلى لغة الضاد الأستاذ أحمد وفيق ؛ ولعل القراء يذكرون أنى حين قدمت اليهم الجزء الأول منها أشرت إلى خطر هذا المؤلف الجليل لمصر والعالم الشرقى ، ولا سيما فى هذا العصر الذى تشغل السياسة فيه عقول بنى الشرق فى توثبهم وتطلعهم إلى الحرية

ومما نغتبط له بحق ، وقد طال افتقارنا فى نهضتنا العلمية إلى هذه الناحية من نواحى المعرفة ، أن الأستاذ قد جرى فى هذا المؤلف على طريقة البسط والعرض تعقبهما المناقشة والتحليل ؛ فهو يستوعب هـذا العلم ويلم بأطرافه ، لا يغادر شيئاً مما قيل فيه ، فضلاً عن أنه يسير فى سرده مع التاريخ فينقلك من عصر إلى عصر ويريك مبلغ ما طرأ على نظريات هذا العلم من تطور حسبما مرت فيه من عصور . وهو إلى جانب هـذا يقف عند كل نظرية مبيناً لك مادار حولها من المناقشات ومقدار ما لاقت من تأييد أو تفنيد

أقول إن هـذه الطريقة التى سار عليها الأستاذ المؤلف هى ميزة الكتاب الأساسية ، وإن كان فى القراء سواى من قد يعيبها ، إذ يستحضر فى ذهنه تلك الكتب التى وضعت فى هذا العلم فى غير لغتنا وكان قوامها التخصص والاستقصاء والتعمق ، فالعالم هناك يتناول ناحية خاصة من جزئيات العلم ويعرضها فى تحليل ودقة وتقصّ ، مما يفتق الذهن ويرهفه ويلذه ، ولكننا الآن أو على الأقل كثرتنا ، لم تتعد بعد مرحلة الألمام والاستيعاب . وخير ما يعمله المؤلف فى هذه الحالة أن يعرفك إلى العلم ، حتى إذا تم لك ذلك أمكنك أن تتابع فيه من يتغلغل ويتقصى

وقف الجزء الأول من هذا الكتاب عند عهد الأصلاح ، فابتدأ به الجزء الثانى الذى أحدثك عنـــه ، واختتم بالثورة الفرنسية ، وهى فترة لذيذة ممتعة بما تخللها من مواقف وحوادث كان لها أعظم الأثر فى تطور فكرة الدولة ؛ وحسبك من تلك الحوادث الثورة الفرنسية الكبرى ، وما مهد لها به كبار الفلاسفة من آراء فى هذا الموضوع الخطير

هذا ولقد ارتحت كثيراً الى اسلوب الأستاذ وفيق لملاءمته لطريقته ، فهو يتدفق من غير التواء ولا تعقيد ، ويتبسط فى غير حشو ولا إسفاف

* * *

والكتاب الثانى عبارة عن رسالة صغيرة موضوعها أبو تمام ، شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله ، ويقع فى مائة صفحة من القطع الصغير ، صدره مؤلفه الأديب عمر فروخ بصورة خيالية للشاعر بريشته ، وهو على صغر حجمه ، قد جمع كثيراً مما يهم كل أديب معرفته عن أبى تمام ، ولقد كان صاحبه موفقاً فى تقسيم موضوعه ، فابتدأ بالترجمة مبيناً حياة الشاعر عهداً عهدا ، ولا يخفى على القارىء أثر ذلك فى المساعدة على تفهم شعره . بعد ذلك أخذ يشرح خصائص أبى تمام وما امتاز به من غيره ، وعرض أقوال المخالفين له والمعجبين به ، ثم ختم بحثه بنقد فنون الشاعر ، جاريا فى ذلك وفق ما اصطلح عليه النقاد ، دون أن يحول ذلك بين إدلائه برأيه فى دقة وانصاف جديرين بالثناء ، فأفاض فى نقد مدح أبى تمام وموقفه من ممدوحيه ، ثم بسط طريقته فى الرثاء ومكانته فى هذا الباب، وتعرض لمقدرته فى الوصف مستشهدا فى ذلك كله بأبياته المشهورة محللاً لها مبينا رأيه فيها مما يشهد للمؤلف بحسن الذوق ، ويكسب رسالته على الرغم من صغرها كثيرا من الثناء والتقدير

الخفيف